

موريس
روكلان

تاريخ علم النفس

مكتبة
الفكر الجامعي
منشورات عويدات
بيروت - لبنان

تاريخ علم النفس

موريس روكلان

استاذ في كلية الآداب والعلوم الانسانية
باريس - السربون

نارخ علم النفس

ترجمة

علي مقلد

دبلوم الدراسات العليا في العلوم المالية
مجاز في الحقوق

علي زليور

دكتور في الفلسفة وعلم النفس
دبلوم الدراسات العليا في الاقتصاد من باريس

منشورات عويكات
بيروت لبنان

جميع حقوق الطبعة العربية في العالم محفوظة
لدار منشورات عويدات
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى : كانون الثاني (يناير) ١٩٧٢

مقدمة المترجمين

يعتبر هذا الكتاب من خير الكتب ، وافضلها ، التي تبحث في تاريخ علم النفس ، والتي تتناول تناولاً مؤلفاً وتركيبياً ، لأشهر ميادين هذا العلم الانساني الرحب الجنبات ، والذي يعود به التاريخ ، اذا أخذ من الوجهة العلمية الصرفة ، إلى المائة سنة الاخيرة .

لا ريب في أن عراقيل من نوع ما ستنتصب في وجه القارئ ، يتجلى معظمها في التكثيف والعرض التركيبي للمعطيات . إذ قد يبدو كأن صديقنا واستاذنا الجليل البروفسور م. روكلان يقدم عمله هنا للمتخصص ، المطلع قبلاً على علم النفس بمدارسه وميادينه .. ، أما العراقيل التي قد تنجم أحياناً عن الترجمة فاني لا اعتقد انها ، هنا ، ذات شأن بالغ إذ ، كما سيلاحظ ، بذلنا قصارى جهدنا بغية تفاديها أو تلافي ما في الوسع بإضفاء مسحة السلاسة والبساطة على التعابير الاعجمية المعقدة في احيائين عديدة .

من هنا ايضاً ، لا غنى عن التطرق السريع إلى موضوع اللغة العربية وعلم النفس : لم تكن هناك مشكلة ذات بال ، طيلة العمل هذا ، بهذا الصدد . لكن ذلك لا يعني عدم وجود صعوبات آيلة إلى المفرداتية التقنية التي قد تسمي كأداء كلما زاد الاقتراب من مشكلة عامة هي اللغة ازاء الآلات وازاء التخصص العلمي الدقيق جداً والرهيف .

ونحن إذ نقدم هذا الكتاب الثمين - الذي لا مثيل له بالفرنسية ولا بالانجليزية - فالتنا توجه به إلى طلابنا الجامعيين المتخصصين لا في علم النفس

فقط ، بل وكذلك الى الذين يقبلون على التخصص في الفلسفة ، في التاريخ ، في علم الاجتماع ، ولا سيما في الادب العربي .

ان المتخصصين في الادب العربي ، السائرين منهم على الطريق او الذين انهوها ، هم احوج الناس ، بنظرنا ، للانتفاع من ثمار العلوم الانسانية الراهنة اذا رغبوا في تناول افضل واعمق لمادة اختصاصهم وفهمها حسب منظورات نافعة وجديدة . تلك هي ايضا حال الذين يودون ، من جهة عامة ، قراءة الحضارة الغربية قراءة اوضح وأجد وأجدي ...

الأم ، نحن نسعى بترجمتنا لهذا السفر النفيس تأدية خدمة ، بل ، على الاصح ، القيام بواجب تجاه طلابنا في مادة علم النفس ، ولا سيما ، تجاه رف علم النفس في المكتبة العربية .

لا بد من إجزاء الشكر للصديق الدكتور نزار الزين ، رئيس قسم علم النفس في الجامعة اللبنانية ، فله علينا دين عسانا نجد في التعبير عنه نوعاً من الاعتراف بحسن الصنيع .

يبقى القول إن التوجيهات الثمينة والمساعدة المعنوية التي قدمها لنا المؤلف ، البروفيسور روكلان ، تستوجب منا الثناء عليها والإقرار بفضلها الجسم . وفي المقدمة التي وضعها خصيصاً للترجمة العربية يتبين بحلاء مقدار المنفعة والغنى للعاملين في مجال علم النفس ، في بلادنا ، من اشتراكهم في البدوات العالمية ومساهماتهم في الحلقات الدراسية الدولية . كما انه صار من الضروري ايضاً كتابة المقالات للمجلات الاجنبية المتخصصة ، وهي كثيرة ، التي لا توصل الباب امام أبحاث رزينة تردها من البلاد العربية القادرة على تقديم مثل هذه الاعمال .

المترجمان

مقدمة المؤلف

(خاصة بالطبعة العربية)

أنا سعيد ، سعادة فائقة ، بأن يكون هذا المؤلف الجم التواضع عن تاريخ علم النفس مقدماً للقراء باللغة العربية . لقد احتفظت بأطيب الذكرى عن الاتصالات التي اتاحت لي الصدفة اقامتها مع بعض علماء النفس العرب . يذهب بي الفكر خصوصاً إلى تلك المحادثات التي جرت بيني وبين البروفسور القوصي ، من جامعة القاهرة ، بمناسبة الحلقة الدراسية الدولية عن التحليل العاملي التي ادى لها مساهمة نفيسة ، والتي انعقدت في باريس ، عام ١٩٥٥ . كما يرد في خاطري أيضاً زملائي من جامعة الجزائر الذين تسنى لي ان أسدي لهم عوناً متواضعاً .

واني لاجزي الشكر للسيد علي زيعور لتفضله بأن يترجم هذا المتن وان يقدم لي بذلك امكانية اعادة وتوسيع تلك الصلات وتلك الصداقات .



M. REICHLIN

المدخل

لو ان علم النفس ظل ذلك الفرع من الفلسفة المخصص لـ « النفس » لكان تاريخه يبتدىء مع اوائل آثار الفكر الانساني .

إلا انه لما يمض بعد اكثر من حوالي مائة سنة على استشفاف امكانية وجود علم نفس علمي ، يكتفي ، عن طريق الملاحظة وعن طريق التجربة ، بدرس ردود الفعل عند الكائنات العضوية الكاملة في مختلف ظروف البيئة المحيطة بها . ومنذ ذلك التاريخ اصبحت مهمة عالم النفس تنحصر في العمل على إحداث تغيير بشكل منتظم ومذهب ، في هذه الظروف ، بغية ايضاح « القوانين » التي تتحكم في ردود فعل هذه الاجسام العضوية (انسان او حيوانات) . وفي الحالات التي لم تكن هذه التغييرات التجريبية ممكنة التحقيق ، لاسيما في حالات علم النفس الانساني ، كان العالم النفساني يبذل جهده ، على الاقل ، وقدر المستطاع ، في ان يستعمل الملاحظات التي كان يمكنه استقاؤها .

سوف لن يعنينا هنا إلا مسألة هذه السيكولوجيا التي كانت قد وصفت بـ « الجديدة » خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وهي تتميز عن السيكولوجيا الفلسفية ، لا بفرضها فقط بل وايضاً بمنهجها ، الذي هو منهج بقية العلوم : فهو منهج يفترض وضع الفرضيات موضع التجربة ، تجاه الوقائع الثابتة ثبوتاً موضوعياً ، اي بشكل يمكن اي مراقب من ان يتحقق منها ، شرط ان يكون ملماً باستعمال التقنيات التي استعملت لاستثبات هذه الوقائع . اما فيما خص نفس هذه الفرضيات التي ينبغي اثباتها ، فيبدو انها كانت ، في

بداية الفترة التي تعيننا ، موروثة ، بصورة مباشرة ، عن الاهتمامات الفلسفية السالفة . لم يكن هناك مجال للتردد ، في البدء ، في محاولة اجراء معادلة بشكل تجريبي ، او مقارنة ، حول علاقات الجسد بالنفس ، ثم البحث عن وجود او فقدان حلقة التتابع في سلسلة الكائنات الحية ، وبالاخص بين الانسان والحيوان .

لكنه سرعان ما تبين للباحثين ان هذه المسائل ، المطروحة بهذا الشكل ، لم يكن لها محتوى علمي ، وان الاهتمامات التي قدور حولها هذه المسائل ، يجب ان تترجم بكلمات اخرى ، اذا اريد لها الاسلوب العلمي ، وان هذه الترجمة تتطلب عملاً صبوراً لحل مسائل اكثر تواضعاً وسهولة من هذه الاهتمامات . فاتجهت معظم الاعمال العلمية ، في مجال السيكلوجيا ، نحو تجميع الوقائع المستقرة الثابتة ، عن ناحية محددة ومعينة .

وتضاعفت الابحاث بسرعة فائقة لاستكشاف مجال سرعان ما تبين عظم اتساعه . اذ كان يجب في الواقع ان يتناول البحث درس الحيوان ودرس الانسان ، وان ينظر إلى الانسان في صفاته العامة وكذلك ايضاً في الفروقات التي تمايز الافراد عن بعضهم البعض ، وان يدرس المريض ، والانسان السوي ، والطفل ، والبالغ ، ثم الانسان المنفرد والانسان المنضوي ايضاً في الزمر الاجتماعية المتعددة التي تحتويه . وادى اتساع هذه المسائل وتشعبها إلى قيام تشعب في المناهج ، حتى اصبح من الضروري اليوم التفريق بين ميادين مختلفة في علم النفس . وهكذا يمكننا على التوالي معالجة تاريخ السيكلوجيا «التجريبية» و«الحيوانية» و«التباينية» و«المرضية» و«المنشئية الوراثية» ثم «الاجتماعية» . وسنشير ايضاً إلى التطبيقات العملية الأكثر اهمية لهذه الفروع من البحث .

في أي نموذج من المشاكل تخصصت ، بالتدريج ، كل منها ، هذا ما سيظهر فيما يلي من هذا البحث . إلا انه يجب ان يظهر فيه ايضاً وحدة بعض الاصول وبعض التأثيرات وبعض التطورات . ويتساءل بعض العلماء ، بعد تجزئة ميدان علم

النفس هذه التجزئة الكبيرة : ليست وحدته في درب الزوال بعد ان تم الإجماع على أن القضايا الإنسانية هي ، في أساسها ، قضايا معقدة تركيبية ، يمكن أن تحمل فقط بتكاثف جميع العلوم الإنسانية ؟ لكن ، من جهة أخرى ، هل يمكن السير عكس قانون التخصص ، أي تقسيم العمل ، هذا القانون الذي يبدو انه يتحكم بالعمل العلمي تحكماً لا مناص منه ولا انفكاك كما هو الحال في العمل الصناعي ؟

قد يساعد إجهاد الفكر في التاريخ بشكل اقوى مما حصل هنا ، على التغلب على هذه المشكلة الاحراجية . ان وجود هذه القضية المطروحة هو الى حد ما في اساس هذا المؤلف وهو من جملة الامور الموجهة له .

من المتواتر ، في التأريخ ، اعتماد القاعدة الحكيمة القائلة بعدم ذكر مؤلف حي ولكن ضيق المجال الزمني المتاح هنا يمنع مع الأسف من تبني هذه القاعدة . من جهة ثانية ، بلغت كثرة الاعمال المعاصرة حداً جعلنا عاجزين ايضاً ، وهذا ان اردنا ، عن ذكر جميع المؤلفين الأحياء ، واذن فلنأمل أن يشفع لنا سوء الوضع الذي نحن فيه لدى من اغفلنا ، بغير حق ، ذكرهم هنا .

ومن جهة أخرى ، سيعلم القارئ ، من مجرد النظر إلى عدد المؤلفين المأتي على ذكرهم انهم لم يراجعوا بامعان وتمحيص . واذن ، فالمؤلف هنا لن يربح شيئاً من جراء اخفاء مستقياته ، فيما يتعلق ببعض النقاط ، من عدة مؤرخين اكثر تخصصاً ، ورد ذكر بعضهم في حواشي هذا الكتاب . وككل الذين يعنون بتاريخ علم النفس فقد انتفع المؤلف على نطاق واسع من الكتاب الموسوعي المعرفة الذي وضعه أ . ج . بورنغ E. G. Boring (١٨٨٦ - ١٩٦٨) .

علم النفس التجريبي



١ - منشأ القضايا والمناهج

٢ - الرواد

٣ - المؤثرات اللاحقة

٤ - التطور الحديث

أ- منشأ القضايا والمناهج

إن الأعمال الراهنة التي تشكل مجال علم النفس التجريبي هي الوريثة المباشرة تماماً للأعمال التي طبعت ، بوجه عام ، ظهور فرع جديد ، متميز عن السيكولوجيا الفلسفية ويرنو إلى أن يتميز عن هذه أيضاً باستخدامه لنعت هو : « التجريبي » . ومنذ أن سببت هذه السيكولوجيا الجديدة نشوء فروع متخصصة لها ، أصبح استعمال هذا النعت سبباً في وقوع الإيهام والالتباس . فمجال السيكولوجيا التجريبية ، الذي انحصر بدرس الإنسان السوي في أوضاع تتحقق مختبرياً ، ليس هو المجال الوحيد ، اليوم ، الذي يمكن استكشافه بالمنهج التجريبي . ذلك بأن هذا الأسلوب يستعمل أيضاً في السيكولوجيا الحيوانية ، وفي سيكولوجيا الطفل ، وفي السيكولوجيا الاجتماعية ، الخ ..

إن ظهور هذا الأسلوب في علم النفس يمكن أن يعتبر ، بوجه عام ، تمظهراً لتطور عام مشترك بين جميع فروع المعرفة . لكن الباعث عليها كان ، على وجه التدقيق ، تطور بعض العلوم الفيزيائية وتطور علم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا) . من المعلوم أن القياسات أو الملاحظات ، في العلوم الفيزيائية ، تتم بواسطة سلسلة متفاوتة التعقيد من الآلات تدرج بين الظاهرة والملاحظ . وحواس الملاحظ نفسه يمكن أن تعتبر آخر هذه الأدوات . إن التقدم الملحوظ في أساليب القياس والملاحظة أدى ، في الكثير من الحالات ، إلى الحد من دور هذا المراقب ، في حين أن هذا الدور ، كان في القرن التاسع عشر ، ضخماً . كما كان الحال مثلاً ، في ملاحظة اللحظة التي يمر فيها نجم في وسط عدسة المنظار على أساس طريقة برادلي .

لقد لاحظ بيسيل Bessel ، وهو فلكي ألماني ، حوالي سنة ١٨٢٠ ، بهذه المناسبة ، ان الأخطاء التي يرتكبها علماء الفلك الذين يقومون بهذه الملاحظة ليست بما لا يمكن التنبؤ به : فلكل نمطه الخاص من الأخطاء ، التي يقع فيها دائماً . حتى قيل أن لكل « معادلته الشخصية » . وفتحت هذه الملاحظة بدون شك المجال للانتفاع منها في علم الفلك ، اذ أفاضت امكانية تصحيح الملاحظات التي يدونها كل فرد . لكنها طرحت ايضاً قضية جديدة امام العالم الفيزيولوجي وامام العالم النفسي : كيف يمكن تفسير هذا الاستقرار الفردي ؟ وكانت هذه المشكلة احدى مواضيع الابحاث « الكلاسيكية » في ذلك العصر حيث انجز الفيزيولوجيون العاملون في الجهاز العصبي ، مدفوعين بموضوع بحثهم هذا ، لان يكونوا سيكوفيزيولوجيين وعلماء نفس بآن واحد .

سيبقى دائماً من الصعب نوعاً ما تحديد المجالات المختصة بكل من علم النفس والفيزيولوجيا تحديداً دقيقاً : يشهد على ذلك وجود فرع متوسط بينهما هو السيكوفيزيولوجيا . ويتناول التفريق بينهما درجة العمومية في ردود الفعل التي يتناولها الدرس ، اذ يبدأ مجال العالم النفسي ، مبدئياً ، عندما يكون الجهاز العضوي واقعاً برمته تحت تغيرات الوسط . ولا غرو فان مهمة الجهاز العصبي هي بالضبط ، إيجاد التنسيق والتكامل بين ردود للفعل وبين المثيرات التي تصيب الجهاز العضوي كله (شرنفون ، ١٨٥٧ - ١٩٥٢) . ويُفهم اذن ، بعد هذا ، كيف يصطدم الفيزيولوجي (عالم الوظائف العضوية) وهو يدرس الجهاز العصبي ، بالمشاكل التي تهم ايضاً العالم النفسي ، وكيف ايضاً ، من وجهة نظر تاريخية ، استطاعت السيكولوجيا التجريبية ان تحصل ، في جملة ما حصلت عليه عند نشأتها ، على بعض القضايا وبعض النتائج وبعض الاساليب التي ابتدعتها الفيزيولوجيا التي وصلت قبلها إلى درجة العلم التجريبي .

هذا ويستحيل بكل تأكيد وبداهة ، اجمال ما وصلت اليه فيزيولوجيا الجهاز العصبي من تطور ومن مكتسبات ، اجمالاً يكون بشكل متمسك وفي

مجملة اسطر . سوف لن نبحث هنا غير بعض الوقائع الاستشهادية التوضيحية المتعلقة بمستويات ثلاثة : تكوين الانسجة العصبية وخصائصها الأولية ، فيزيولوجية الاحساسات ، فيزيولوجية الدماغ .

لقد اكتُشف تنظيم الانسجة العصبية من الخلايا ، بفضل التحسينات البصرية التي أدخلت على المجهر ، وبفضل التحسينات الكيميائية في طرق التلوين ، وذلك فيما بين سنة ١٨٣٣ ، وهو التاريخ الذي اثبت (ريماك) فيه ، ان المادة الرمادية في الدماغ هي خلوية ، وسنة ١٨٨٩ ، وهي سنة اكتشف فيها (كاغال) وحدة الخلية العصبية وأليافها (العَصَبَة) ، ودور اماكن الاتصال بين العصبات (الوصلات Synapses) وتسير خلال هذا الجهاز من الخلايا المتجاورة ، الارتعاشات ، وكان يظن ، بادىء الأمر ، أن سرعتها كبيرة جداً إلى درجة أنها لا تقاس (تساوي ٦٠ مرة سرعة الضوء حسب تقديرات البعض) . لكن التقدم في أساليب تسجيل التقلصات العضلية هو الذي افاح لـ « هملولتز » أن يبين ، حوالي سنة ١٨٥٠ ، أن هذه السرعة هي أبطأ من ذلك بكثير ، وانها ادنى من سرعة الصوت ، وانها بالتالي خاضعة للقياس . لا شك في ان هذه الاكتشافات التشريحية - الفيزيولوجية كانت ، بالطبع ، مهمة جداً من أجل التقدم اللاحق في حقل الفيزيولوجيا نفسها : اكتشاف الخلايا في الجهاز العصبي ، وخصوصاً في الدماغ ، مكّن من تقديم نوع من « النموذج » التشريحي للنظريات التي اتى بهاء علماء النفس الساعين لتحليل الظواهر إلى « عناصر » يحب البحث عن قوانين ترابطها . وكان من جراء القدرة على قياس السرعة ، القابلة للقياس ، في التيارات العصبية ان أمكن الوصول إلى مناهج في الدرس ، كأسلوب درس « زمن رد الفعل » (وهو الأسلوب الذي استعمله هملولتز) ، وهي ما سنتكلم عنها .

من المهم ان ندرك ، وعلى مستوى تنظيمي اعلى ، ان فيزيولوجيا الحركة قد سبقت فيزيولوجيا الاحساسات . لان الحركة ، بالواقع ، حادث قابل للوضع تحت الملاحظة بغير مشقة ؛ بخلاف ما هو عليه حال الاحساس الذي يبدو

وكأنه ليس سوى « تجربة مباشرة » تتعلق بالفرد وحده . هذه الصعوبة المنهجية التي أمكن ، كما سنرى ، التغلب عليها ، قد تفسر بأن دراسة الاحساس هي التي تكون قد رسمت الحدود التي تقف عندها المناهج الفيزيولوجية ، وحددت الولوج إلى مجال آخر هو مجال علم النفس . والصياغة الفيزيولوجية لمشكلة الإحساس (أي وفقاً للمنهج الفيزيولوجي) يجب التفتيش عنها في الإثبات الذي قام به الانكليزي بل C. Bell سنة ١٨١١ والفرنسي ف. ماجاندي سنة ١٨٢٢ ، وهو ذلك التبيان لوجود الياف عصبية احساسية مختلفة عن الالياف العصبية المحركة . وفي سنة ١٨٣٨ قدم ج. مولر J. Müller ، صيغة منهجية ومذهبة لمبدأ « الطاقة النوعية للأعصاب » : فإثارة عصب الرؤية يؤلد إحساساً بالرؤية ، ولا شيئاً آخر غير ذلك ؛ كذلك الحال بكل حاسة . وهذا المبدأ وجد في كتاب « الموسوعة في فيزيولوجيا البشر » Handbush Der Physiologie Des Menschen المنشورة بين سنة ١٨٣٣ وسنة ١٨٤٠ ، والتي يعالج بعض اجزائها مواضيع ستكون فيما بعد مواضيع ومشكلات علماء النفس . لا يمكن هنا ذكر التقدم الحاصل في المعارف النفسية الفيزيولوجية المتعلقة بكل حاسة ، وبشكل مفصل . من بين الباحثين الذين ساهموا ، في هذا المجال ، المساهمة الكبرى ، يذكر مولر ، الذي تحدثنا عنه كعالم فيزيولوجي ، وهلمولتز الذي سنتكلم عنه مرة أخرى كعالم نفسي : هذا التصنيف التمسفي يعكس هنا الفترة الزمنية ويشكل موضوعاً انتقالياً بين حقليين متجاورين .

والمعارف المتعلقة بالقسم الاكثر تعقيداً من الجهاز العصبي ، وهو الدماغ ، تقدمت تقدماً واسعاً خلال الفترة التي نتما فيها علم النفس العلمي . فالدماغ بدأ أولاً ، وبوضوح ، كعضو يلعب دوراً أساسياً في خدمة التفكير . ولعب في هذا المجال علم فراسة الدماغ «فرينولوجيا» الذي قام به ف. ج. غال F. J. Gall (١٧٥٨ - ١٨٢٨) دوراً مفيداً ، فهو علم يبلور الكثير من الملاحظات أو

التأكيدات السالفة ، وبالتالي لم يعد « الفكر » مجالاً محصوراً فقط بالعالم الميتافيزيقي فقط ، وهذا لانه ذو كيان مادي يصبح درسه تشريحياً وفيزيولوجياً موضوع اهتمام وعناية. وعلى صعيد آخر فقد اثار (غال) تأثيراً يعادل التأثير الذي احدثه هلمولتز ، عندما اثبت أن الظواهر العصبية ليست آنية ، إذن فدراسة تتابعها زمنياً ممكنة ومقبولة . لكن انماط سير عمل الدماغ كانت تفسر ، وفقاً لمقتضيات الحال ، بمذاهب مختلفة. فالبعض يعتبر الدماغ كعضو موحد تلعب مختلف مناطقه او يمكنها ان تلعب نفس الدور . وقد دافع عن مثل هذه الآراء ب. فلورنس منذ سنة ١٨٢٤ ، ثم لاشلي بعد مضي قرن . أما الآخرون فيعززون إلى كل منطقة من مناطق الدماغ دوراً خاصاً . وعرف علم فراسة الدماغ الذي نادى به غال ، والذي بموجبه يمكن تقييم مواهب الفرد بحسب شكل جمجمته - ازدهاراً كبيراً حوالي سنة ١٨٢٠ ، ولكنه لم يرتد من النظرية العلمية إلا مظاهرها وقد هاجمه بعنف ودحضه فلورنس سنة ١٨٤٢ . وجاء بروكا (١٨٢٤ - ١٨٨٠) ينادي بثبوت حادثة معينة هي ان قـدم التلفيف الجبهي من شق الدماغ الايسر يشكل « مركز النطق » واذا اتبحت له مناسبة الاطلاع الكامل على حالة مريض لا يستطيع الكلام ، فانه لم يجد لهذا الخلل أي سبب ظاهر . وكشف دماغ المريض ، بعد موته ، عن تلف وحيد في المنطقة المشار إليها ، فاستنتج بروكا (١٨٦١) مدعاه . وقام علماء آخرون يعينون مراكز محركة واحساسية وذلك خلال السنوات التي عقت سنة ١٨٧٠ .

هذه الدراسة للمراكز القشرية (اللحائية) اوضحت بشكل مباشر بعض المشاكل السيكلولوجية ، كالتفريق بين الادراك والاحساس . وبوجه عام ادت دراسة « السيروورات العليا » ، الذكاء ، الى تعاقب بين نظريات وحدوية تنظر الى هذه السيروورات كوحدة كلية وبين نظريات تحليلية تبذل قصارى جهدها في تفكيك هذه السيروورات ذاتها الى استعدادات متميزة ، الأمر الذي يذكر بتناوب المفاهيم الفيزيولوجية المتعلقة بسير عمل الدماغ .

هذا ولا بد من ان نضيف هنا ان الطرائق التي استعملت في الفيزيولوجيا

لتسجيل التنفس والنبض وغيرهما ... ، ستستعمل بصورة واسعة من قبل علماء النفس ، وبالأخص عند دراسة الانفعال .

ربما تفسر الملاحظات التي سبقت الإشارة إليها في مجال دور العلم الفيزيائية والفيزيولوجية واثرها في تطور علم النفس السبب في أننا نجد ، غالباً ، مؤسسي علم النفس هم بالوقت ذاته ذوي ثقافة فيزيائية وفيزيولوجية . لنصف ايضاً انهم لم يبعدوا كثيراً عن الاهتمامات الفلسفية ذات العلاقة ببعض القضايا النفسية التي كانوا يطرحونها على انفسهم او التي شكلت ، في ذلك المكان وفي ذلك العصر ، علة وجود ونهاية مطاف ثقافة موسوعية . ويعود الفضل في الاعمال التي ساهمت ، مساهمة واضحة ، في ايقاظ الوعي باستقلال علم النفس ، الى علماء المان . يصعب بكل تأكيد تعيين التاريخ الصحيح لهذا الوعي انما يبدو انه تم في السنوات التي تلت سنة ١٨٦٠ ، تاريخ نشر كتاب فيشنير Elemente Der Psychophysik .

٢ - الرواد

كان ج. ت. فكنر (١٨٠١ - ١٨٨٧) مشهوراً كفيزيائي لامع وكعالم رياضي ، عندما اصيب سنة ١٨٣٩ بأزمة خطيرة وجهت إهتماماته نحو التفكير الميتافيزيقي في المسائل المتعلقة بالروح . ونشر نتائج أبحاثه سنة ١٨٥١ في « زندافستا » مؤكداً بشكل خاص أن الوعي Conscience منتشر في أي مكان من العالم ، وأن الأرض أمنا هي كائن حي ، وأن الروح لا تموت . ولكي يركز مزاعمه على أساس تجريبي ، أخذ يعالج تلك المسألة المدهشة الهادفة للبحث عن المعادلة المشكّلة للعلاقة بين الروح والمادة . هذه المعادلة ، بإتاحتها الانتقال من مجال إلى آخر ، تدلل على تعادلهما ، بل وعلى توحدهما . وقد نشرت نتائج المحاولة سنة ١٨٦٠ في كتاب « عناصر البسيكوفيزيكا » .

كانت تلك العلاقة المبحوث عنها ، على وجه الدقة ، هي العلاقة التي تتقرر بين المؤثر الخارجي في أعضاء الحس (نور ، صوت ، وزن ، الخ .) ، ذي

المنشأ المادي ، وبين الإحساس ، والحاصل بواسطة هذا المؤثر ، وهو داخل في نطاق النفس . لكن كيف يمكن قياس الإحساس بذاته ؟ لكي يصل فكرنا إلى ذلك استعمل النتائج التي توصل إليها عالم فيزيولوجي الماني هو فيبير Weber (١٧٩٥ - ١٨٧٨) ، وكان فيشنير أحد تلاميذه . لقد دلل فيبير سنة ١٨٣٤ ، في كتابه « De Tactu » ، على أنه إذا كان فرد ما يستطيع بمشقة التمييز بين وزن ٢٩ أونصة ووزن ٣٢ أونصة (إذا رازهما بيده) ، فهو كذلك يميز بالكاد أو يفرق بصعوبة ، بين وزني ٢٩ دراخمة و ٣٢ دراخمة ، ذلك أن الحدة المطلقة للمثير ، وهو الوزن ، تتدنى ٨ أضعاف « الأونصة الواحدة تعادل ٨ دراخمات » ، لكن أقل تدني في الوزن ، اللازم لكي تدركه الحواس ، ظل نسبياً هو نفسه (٣/٣٢ في المثل المذكور) . لقد اكتشف هذا القانون من قبل ، في مجال الإبصار ، من قبل عالم فرنسي هو Bouger ، الذي نشره سنة ١٧٦٠ في كتاب « الأبصار حول تدرج النور »^(١) .

هذا القانون هو الذي أتاح لـ فكرنا إمكانية إيجاد حل لمسألة العلاقة بين قياس الإثارة وقياس الإحساس . وقد سبق أيضاً أن كانت قد أقيمت علاقة مماثلة بين الثروة المعنوية (السعادة) والثروة المادية (الغنى) على يد عالم رياضي هو « بيرنولي Bernoulli ١٧٣٨ » وقد أخذ العالم لابلاس^(٢) هذه الفكرة وعالجها في كتابه « النظرية التحليلية للاحتالات ١٨١٢ » .

وبالطبع أثارت أعمال فكرنا جدلاً كثيراً ؛ ولم يبق على قيد الحياة شيء من مدعياته الميتافيزيقية . إلا أن أعماله هذه كانت السبب في إدخال القياس إلى علم النفس ، كما أنها ، في المجال التجريبي ، لحظت بداية درس الطرائق التي تتيح

(١) Traité d'optique sur la gradation de la lumière .

(٢) Théorie analitique des probabilités .

تحديد أصفر مثير تمكن ملاحظته ، أو أصفر فرق ملحوظ بين مثيرين ، وذلك لدى شخص معين (قياس عتبات ، الإحساس) .

لا نجد في أعمال فون هلمولتز (١٨٢١ - ١٨٩٤) الاهتمامات الميتافيزيقية التي قام بها فكنر ، وكلاهما فيزيائي ، وقد عالج هلمولتز كفيزيائي علم وظائف الاعضاء ثم علم النفس . وكدرس أبحاثا تجريبية ذات صلابة ما تزال تحتفظ حتى اليوم ، وبعد مضي قرن حدثت فيه أنواع عديدة من التقدم الثوري في التقنيات ، بقيمة خاصة . تتناول أبحاثه هذه ، بصورة رئيسية رؤية الألوان (١٨٥٢) . وبوجه عام ، وبعد أن أثبت فيبير وفكنر إمكانية استعمال القياسات في مجال علم النفس ، اثبت هلمولتز خصوبة الأبحاث المذهبة في هذا المجال ذاته .

عندما كان هلمولتز استاذاً للفيزيولوجيا في كونفسبرغ نشر كتاب : « فيزيولوجية الابصار »^(١) ١٩٥٦ - ١٨٦٦ . وقد تناول مرة أخرى ، في الجزء الثاني ، نظريته عن رؤية الألوان ، المنشورة سنة ١٨٥٢ ، والتي أخذ هلمولتز فكرتها عن ت . يونغ T.young (١٨٠١) . وهنا نجد أن الخاصية التي قالها مولر عن الاعصاب تمتد لتشمل الالياف التي تتركب منها هذه الأعصاب . هناك ثلاثة نماذج من الالياف تنقل على التوالي إحساسات الاحمر والاخضر والبنفسجي الصادرة عن اعضاء مستقلة في الشبكية ، أما النظرية المتعلقة بأدراك الأصوات فموجودة في كتاب : Tonempfindungen (١٨٦٣) .

بعدها علم هلمولتز الفيزيولوجيا في هيدلبرغ . وتنسب أيضا نظريته إلى أعضاء مختلفة موزعة على طول « مرنان Resonateur » (عضو كورتي Corti وعلى الأخص الطبلة القاعدية) ، الاحساسات التي تحدثها أصوات ذات ارتفاعات مختلفة وحيث كل واحد من هذه الأعضاء يمتلك ليفته الخاصة داخل العصب . إذن ، فالفروقات النوعية بين الألوان أو بين الأصوات ، تُردّ إلى فروقات

(١) Handbuch der physiologischen optik

في الموضعة أو فروقات في البنية . وهكذا ، وبعد أن بين هلمولتز أن الظواهر العصبية تجري وفقاً لسلم زمني يتيح مراقبة تسلسلها ، وضع أيضاً الفوارق النوعية في نطاق الأحداث القابلة للملاحظة المادية بأن عاديها إلى فوارق تحديد المكان (الموضعة) .

لكن الرجل الذي قرر بصورة نهائية استقلال علم النفس التجريبي هو Wundt فوننت (١٨٣٢ - ١٩٢٠) الذي وضع أسسه ، بأعماله الضخمة ، وبالسبل التي شقتها هذه الأعمال ، ثم بتأسيسه أول مختبر لعلم النفس التجريبي عام ١٨٧٩ في ليبزيغ ، ثم بالعديد من تلامذته الذين جاؤا يتلقون في ليبزيغ تعاليمه ومن ثم ليعودوا لتأسيس أجهزة أبحاث وتعليم مكرسة للعلم الجديد ؛ كان بينهم العديد من الأمريكيين خلال العقد ١٨٨٠ - ١٨٩٠ ، والفرنسي ب . بوردون B.Bourdon (١٨٦٠ - ١٩٤٣) الذي علم علم النفس في رين Rennes من سنة ١٨٩٥ إلى سنة ١٩٣١ والذي كرس حياته للأبحاث المخبرية المتعلقة خصوصاً «بالادراك البصري للفضاء» (١٩٠٢) . بل وحتى ردود الفعل ذاتها التي أثارها فوننت أدت إلى إنشاء مدارس جديدة أو إلى اكتشاف حقول أبحاث جديدة .

وبالرغم من أنه كان قد اضطر إلى درس الطب والفيزياء ، والكيمياء ، من أجل كسب معاشه ، فإن اهتماماته الرئيسية اتجهت في البدء صوب الفيزيولوجيا . وفي سنة ١٨٥٦ ، تتلمذ في برلين على يد ج . مولر الذي كان يهتم بدوره باستقلال الفيزيولوجيا التجريبية . وعمل كأستاذ مساعد لمادة الفيزيولوجيا في هيدلبرغ في الوقت الذي كان فيه هلمولتز استاذاً فيها (١٨٥٨ - ١٨٧١) . في هذه الاثناء ترعرع اهتمامه بالفلسفة ، وفي الحين ذاته أيضاً كان يتابع عمله في مجال علم النفس الذي كان يومها قريباً جداً من الفيزيولوجيا : فدرس سنة ١٨٦١ «المعادلة الشخصية» عند علماء الفلك ، ثم نشر من سنة ١٨٥٨ إلى سنة ١٨٦٢ كتابه «مقالات على نظرية الادراك الحسي» *Beitrage zur Theorie der Sinneswahrnehmung* . لقد شكل « الادراك الحسي » الذي عولج هنا ، منذ هلمولتز

حتى أيامنا هذه ، موضوعا ، هو على الترخوم بين الفيزيولوجيا وعلم النفس .
وتقرر التمييز بين الاحساس الذي هو مجرد نتيجة لإثارة عضو حساس
وبين الادراك الذي هو أخذ علم بالأشياء وبالحوادث الخارجية . وفي هذا التفريق
يمكن أن يكمن تمييز بين سيوررات من « مستويات مختلفة » ، وسنتكلم عن
الفائدة التي ستظهر إزاء هذه السيوررات « العليا » . ونجد في مقدمة الكتاب
هذا ، أول برنامج لمادة علم النفس التجريبي . وسيوضح هذا البرنامج بصورة
نهائية تقريبا في كتابه « علم النفس الفيزيولوجي »^(١) الذي ظهرت طبعته الأولى
سنة ١٨٧٣ - ١٨٧٤ ، والسادسة سنة ١٩٠٨ - ١٩١١ .

ومذاك أخذ يسيطر على نشاط فوننت العمل التجريبي . فقد عين سنة ١٨٧٥
استاذاً للفلسفة في ليبزيغ حيث أسس لها في سنة ١٨٧٩ مختبراً ، وفي سنة ١٨٨١ ،
مجلة أسماها « الدراسات الفلسفية »^(٢) التي كانت تنشر أبحاثه . كان أكثر هذه
الأبحاث (تقريبا) يؤول إلى الأبحاث المخصصة للاحاساس والادراكات
وبالأخص في مجال الرؤية (الربح تقريبا من مجمل أعمال المختبر) وأيضا في
مجال السمع ، واللمس ، والمذاق ، وادراك الزمن ، أما بقية الأبحاث فتتعلق
بالانتباه ، وبالوجدانيات (مع تسجيل النبض ، والتنفس ، الخ ..) ، وفي
استعمال « منهج زمن رد الفعل » وهذا المنهج - ابتدعه طبيب العيون الهولندي
« درندوس » سنة ١٨٦٨ ، وحسنه « اكنز » سنة ١٨٧٢ - يقوم على قياس بدقة
بالغة للزمن (جزء من الثانية) الذي يجري بين وقوع المثير الحسي (نور ، صوت
الخ ..) وبين رد الفعل المحرك الذي يعتبر بنظر الإصطلاح التجريبي ، إشارته
(قبض ملقط مثلا) . وبعد تعقيد مهمة الشخص موضوع التجربة تعقيدا
تدرجيا (كأن يطلب إليه مثلا أن يتحرك فقط عند مشاهدة النور الأزرق ،

(١) physiologische psychologie

(٢) philosophische studien

في حين تساط أنوار ذات ألوان شتى) . وبعد طرح المدة الزمنية لرد الفعل البسيط من المدة الزمنية لرد الفعل المركب المناظر له ، صار من المأمول معرفة الوقت اللازم للسيرورة الجديدة التي سببها التعقد التجريبي (التمييز بين الألوان في المثال) . وهذه الطريقة ليست غير قابلة للانتقاد إلا في الحالات التي يترجم فيها تدخل أوضاع جديدة بعملية زيادة أو جمع لا بتحول كامل في الاختبار ، وسوف تتاح لنا الفرصة للعودة إلى هذه النقطة .

وبالرغم من الدور الحاسم الذي لعبه فوننت في تطوير التجريب في مجال علم النفس ، وبالرغم من اهتماماته كعالم فيزيولوجي ، فقد استمر عمله مطبوعاً بالمنحى الفكري الفلسفي . ولم يكتف فقط بكتابة مؤلفات أمثال « المنطق » ١٨٨٠ - ١٨٨٣ ، و « الأخلاق » (١٨٨٦) ، ثم « نظام الفلسفة » (١٨٨٩) ، بل أن فهمه للتجريب بالذات جعله يرى في هذا ، الوسيلة لتوضيح نظام عام مسبق عن طريق تبيان نقاط خاصة فقط ، للاستثبات بشكل أكيد ورئيسي من فرضية محدودة إلى درجة تكفي لكي يقال معها أن مثل هذا الاختبار أمر ممكن . ويرتكز مذهبه على الثنائية وعلى نظرية التوازي بين الجسد والروح . فعلم النفس ذا موضوع هو التجارب المباشرة للفرد ، وهذه التجارب يبلغ عنها عن طريق الاستبطان فقط ، وهذا منهج يقوم على أن يطلب إلى الفرد ذاته أن يصف ما يفكر فيه ، أو يحس به ، أو بكلمة مختصرة أن يصف أحواله الذاتية . وطريقته هي في جوهرها تحليلية ، إذ تقوم على تجزيء إلى عناصر ، لتلك السيورورات الواعية ، وعلى تحديد القوانين التي تتحكم في ترابط هذه السيورورات . بيد أن هذه الطريقة لا تنجح تجاه « السيورورات العليا » التي تحصل في مجالات التكيف المعقدة جداً . ذلك أن الملاحظة المقارنة للظواهر الاجتماعية تكون عند ذاك أكثر ملاءمة (وبهذا الصدد كتب فوننت ، الذي يعتبر إلى حد ما طليعة مؤسسي السيكلوجيا الاجتماعية ، مؤلفه الضخم المسمى علم نفس الشعوب Volkerpsychologie الذي ظهر الجزء الأول منه سنة ١٩٠١ والعاشر سنة ١٩٢٠) . وبالفعل فقد أزيل من المختبر درس السيورورات العليا .

لا تتجلى أهمية مؤلف فوننت في هذا العمل ذاته ، بل وأيضاً في كون التأثيرات الكبرى التي حولت المجرى اللاحق لعلم النفس التجريبي ، يمكن أن أن تعتبر ردود فعل ضد بعض مميزات نظامه . وفي الواقع فإن هذه المميزات تقوم على درس السيورورات العليا درساً تجريبياً وعلى اعتبار الأحداث النفسانية كوحداث مرصوطة مبينة بشكل قوي وليست قط مجرد تلاصق « عناصر » وعلى نبذ الاستبطان .

٣ - المؤثرات اللاحقة

١ - الدراسة التجريبية للسيورورات العليا . - في سنة ١٨٧٩ تطرق رجل علم انكليزي لامع ، هو ف . فالتون (١٨١٢ - ١٩١١) إلى هذا الموضوع مع مواضيع أخرى (سنأتي على ذكرها في مجالها) واستعمل استمارة لكي يحصل على إفادات عدد وفير من الاشخاص حول طبيعة « الصور العقلية » (البصرية والسمعية وغيرهما) التي تبعثها بعض الكلمات في أذهانهم .

لكن فليسوفاً ألمانيا آخر ، ذو ثقافة علمية ، وهو أبنفهوس (١٨٥٠ - ١٩٠٩) هو الذي سيطبق لأول مرة وبشكل مذهب على سيورورة « عالية » ، هي الذاكرة ، الطريقة التجريبية التي كانت قد غزت مجال الاحساس والإدراك . اكتشف هذا إنتاج فكنر سنة ١٨٧٦ (وبالمعنى الحرفي تماما : في علبة كتي "باريسي) ثم قرأ أيضاً ما نشره فوننت . لكنه لم يكن له هناك بالفعل استاذاً ولا تلاميذ ولقد ظهر له كمؤلف منفزل ، كتاب بعنوان : « في الذاكرة » Uber das Gedachtnis

عالج فيه مشاكل مناهجية عامة تتعلق بالظروف التي تجعل القياس ممكناً وطبق آراءه العامة على مشكلة الذاكرة . ثم علم اشخاصه المجرّب عليهم لوائح من المقاطع التي لا معنى لها (لكي يحصل على معدات أكثر انسجاماً من تلك التي يتيحها نص ذو معنى) . واستعمل تواتر التكرار الضروري لإعادة حفظ لائحة منسية جزئياً ، لقياس الأثر الذي تركه تعلم أول . وهكذا درس أثر طول

العتاد (اللاتحة) ، وعدد المرات المكررة ، والزمن (منعنى النسيان) ،
والتداعي ، الخ

ودرس «ابنفهوس» ، عدا أبحاثه هذه عن الذاكرة ، نظرية رؤية الالوان ،
لكنه عاد إلى السيورورات العليا ، مقترحاً ، سنة ١٨٩٧ ، تطبيق طريقة
لـ « ريازة » ذكاء تلاميذ برسلو : بأن طلب اليهم اكمال نص حذفت منه
بعض الكلمات .

جرت أول دراسة تجريبية حول الفكر ، في العقد الأول من القرن ، من
قبل جماعة من علماء النفس العاملين في معهد السيكولوجيا التابع لجامعة
فورزبورغ . لقد جربوا أن يجعلوا من الاستبطان أسلوباً تجريبياً ، مدونين
بدقة كل أوضاع التجربة (زمن رد الفعل خصوصاً) وكل ما يشعر به الفرد في
كل مرحلة من مراحل العمل الفكري المطلوب إليه ، مكتفين في التجربة
بالأفراد الذين سبق إعدادهم ، ومكررين التجربة ، الخ ... كانت « مدرسة
فورزبورغ » تستوحى وتدار من قبل تلميذ قديم لفونددت ، إنه أ . كولب
(١٨٦٢ - ١٩١٥) .

بيد أن الأثر المهم يعود ، في هذا المجال ، إلى فرنسي هو أ . بينيه
A . Binet (١٨٥٧ - ١٩١١) . ففي مجال الذاكرة يعاكس بينيه هذا
ابنفهوس في استعمال العتاد « المعدات » ، فهو يستعمل الافكار ، لا المقاطع
الخالية من المعنى « ١٨٩٥ » . ولم تكن هذه النزعة الرامية إلى درس عملية
الذاكرة في الظروف الطبيعية العادية إلا تمظهاً لاتجاه عقلي عام يعاكس ويضاد
النزعة الاصطناعية ونزعة التجزئة في مجال علم النفس التجريبي الالماني . ولقد
سبق أن وجد هذا الاتجاه في كتابه « المدخل إلى علم النفس التجريبي » (١٨٩٤)
وكذلك أيضاً في مقاله سنة ١٨٩٦ بالتعاون مع ف . هنري حول « علم النفس
الفردى » ، وهو المقال المنشور في « السنة السيكولوجية » التي كان قد أسسها

مع بوني Beounis في السنة السابقة لهذا التاريخ . ولقد أشار فيه إلى ضرورة استعمال الاختبارات الممنوعة والمرغوبة والمكيفة حسب الوسط الذي ينتمي إليه الفرد ، لدرس « الملكات العليا » ، كالذاكرة ، طبيعية الصور العقلية ، الخيلة ، الانتباه ، ملكة الفهم ، الابداع ، الشعور الجمالي ، المشاعر الأخلاقية ، الخ ... ، دون الالتجاء إلى الآلات المعقدة ولا إلى التجهيزات الخاصة . وقاد هذا الاتجاه نحو العيني إلى إجراء تجاربه في المدارس ذاتها لا في المختبرات ، كما قاده أيضاً ، أثناء دراسته لقياس الذكاء ، إلى ترك قياسات « مقاييس الجمجمة أو الرأس » Céphalométriques في سبيل اعتماد « سلم » من الاختبارات الصغيرة التي لا تبعد كثيراً عن المسائل التي قد تطرحها الحياة المألوفة . ويتيح تعقيد هذه المسائل المتزايد - كما سنرى ذلك عند درس السيكولوجيا الفارقية - تصنيف الأولاد وفقاً لدرجات نجاحهم . وبدأت هذه المخالفة للمدرسة الألمانية مدروسة وواعية تماماً . فهو يرى فيها مظهراً من مظاهر « التطوير الحاسم » في حلل سيكولوجيا فكنر وفوننت ، حسبما كتبه في مؤلفه : « الدرس التجريبي للذكاء »^(١) « ١٩٠٣ » .

٢ - سيكولوجية الشكل . - تتطلب محاولات الدرس التجريبي للسيورورات العليا ، إلى حد ما ، التخلي عن الاتجاه التحليلي الشديد التبسيط (وفوننت سبق له أن رأى ذلك جيداً) . والواقع أنه ليس صعب تماماً التثبت من الحالات المعقدة جداً بواسطة عدد محدود من « العناصر » ، تصبح المشكلة فيها إيجاد كيفية ترابط هذه العناصر . إلا أنه سرعان ما تبين عقب وفاة بينيه بقليل أن الصعوبة توجد أيضاً على مستوى الإدراك . والواقع أن هذا هو المجال الذي غالباً ما كان موضوع الدراسات التي قام بها فريق ضئيل من علماء النفس أمثال : ورتيمير M. Wirthemer و كوهلر W. Kohler و كوفكا K. Koffka الذين أسسوا في برلين ، من سنة ١٩١٠ إلى سنة ١٩٢٠ ، مدرسة جديدة تعتبر الأحداث

(١) أو المقاييس الرأسية

(١) L'étude expérimentale de l'intelligence

السيكولوجية وحدات منظمة ، جشطلت أي اشكالا . هذه الأشكال ليست مجموعة من « العناصر » . ذلك يغير فيها تماما أي تغير في الوضع ، بحيث يحولها إلى وضعية أخرى . وقد تركزت عدة دراسات تجريبية لبحث الكيفية التي على أساسها تنتظم هذه الأشكال ، أو تتميز عن « الأرضية » ، أو تنتقل ، الخ ... لقد تناولت الدراسات بوجه خاص الإدراك ، بل والذكاء أيضا المدروس خصوصا عند الحيوان .

وبالطبع لم تكن هذه الأفكار كلها جديدة كل الجدة . فالانتقادات التي وجهت إلى منهج حساب زمن رد الفعل هي ، مع كثير غيرها ، مظاهر سبقت هذه الأفكار . ثم أن العالم النفسي النمساوي أهرنفيلز C. Ehrenfels نشر سنة ١٨٩٠ مذكرة بعنوان « الصفات الشكلية ^(١) » تعتبر مدخلا مباشرا للمعلومات التي سوف توسعها هذه المدرسة الجديدة .

ويعود إلى « الجشطلتيين » فضل تطوير وصياغة وتنسيق هذه الأفكار ، وإعطائها شكل النظرية ، المحدث للعدد من الأعمال التجريبية الأصيلة : وقد أدرك فريتمر في ١٩١٢ عند درسه كيفية إدراك الحركة ، أن انتقال شيء ما ، يدرك بوجه مغاير لإدراك سلسلة متتابعة من الأشياء الجامدة التي قد تقع في مساره : ذلك أن القضية تتعلق « بشكل » لا يحلل إلى جملة عناصر . وترعرت الأعمال التجريبية ، خصوصا عقب إنشاء ، في عام ١٩٢٢ ، مجلة تولى نشرها هي : « البحث النفسي Psychologische Forschung » . تتناول في معظمها ، الإدراك وقوانينه .

٢ ردود الفعل ضد الاستبطان . — رأينا المكان الذي يتبوأه الاستبطان في علم النفس لدى فوننت ، وهي الطريقة التي تقوم على استعمال افادات الفرد ذاته عن « تجاربه المباشرة » « أحوال الوعي » عنده كإداة للدراسة . لم يتردد فوننت سنة ١٨٥٨ بالقول في مقدمة كتابه « مقالات عن نظرية الإدراك

(1) ueber Gestaltqualitaten

الحسي ، : « ان كل سيكولوجية تبدأ بالاستبطان » . لقد كان غالتون في تقصّيه عن طبيعة الصور العقلية ، و« بينيه » في مشروعه بالدرس التجريبي للذكاء ، يرتكزان ايضاً على الاستبطان .

سرعان ما بدت نقاط الضعف في هذا المنهج . فهو بالواقع ، وبحكم تعريفه بالذات ، انكار للطريقة الموضوعية : فأنا وحدي القادر على الوصول الى « حالات وعي » ، والوحيد القادر على معرفة « تجاربي المباشرة » . وعلى هذا فكيف تتحقق المراقبة من قبل ملاحظين مستقلين ، وهو الامر الذي يعتبر الصفة المميزة للمنهج الموضوعي ؟

لقد بدت هذه المثالب بشككين ، بمقارنتها ، في البدء ، بمنهاج الفيزيولوجيا حيث ان اكتشاف اواليات الهضم والتنفس لم يتم استناداً الى اقوال الافراد الذين تركوا يراقبونها بأنفسهم . ثم ، من جهة ثانية ، بالنجاحات التي حققها علم النفس الحيواني الذي لا يستطيع ، بشكل بديهي طبعاً ان يلتجئ الى الاستبطان . لماذا إذن لا تستعمل في علم النفس الانساني مبادئ المناهج المستعملة في الفيزيولوجيا او في علم نفس الحيوان ؟

٤ - الفيزيولوجيا وعلم النفس . - لقد سبق ان رأينا ، بوجه عام ، الدور الذي لعبته الفيزيولوجيا - خصوصاً الفيزيولوجيا العصبية - في تكوين علم نفس تجريبي . لكن القضايا التي كانت ، في الاصل ، وراء ظهور هذه السيكلوجيا ، كانت على صلة بالاحساسات خصوصاً . ويبدو ان دراسة السيوررات الاكثر تعقيداً يمكن ان تتعلق بالفرع الجديد هذا ، على وجه خاص . وقد افاح التقدم الكثير الذي حققه الفيزيولوجيون ، للبعض منهم امكانية ترقب تطبيق أساليبهم ، أو على الاقل من حيث الامكانية في المستقبل ، على « الظواهر العقلية » ، وعلى « التكيفات ذات المستوى الأعلى » .

بهذا المعنى كتب كلود برنار في خطابه الافتتاحي عند قبوله في المجمع العلمي الفرنسي سنة ١٨٦٩ يقول « تريد الفيزيولوجيا ان تفسر الظواهر العقلية

بالطريقة نفسها المستخدمة في الظواهر الأخرى للحياة .

وفي سنة ١٩٠٣ تسائل الفيزيولوجي الروسي بافلوف أيضاً : « ما هو السبب الذي يحمل على تغيير النهج عند دراسة التكييفات ذات المستوى الأرفع ؟ عاجلاً أم آجلاً سيعمل العلم ، مستنداً الى التشابهات في المظاهر الخارجية ، على نقل المعطيات الموضوعية المستحصل عليها ، الى عالمنا الذاتي ؛ والعلم عندما ينير فجأة وبقوة طبيعتنا الغامضة تماماً فإنه سيوضح الإوالية والمعنى الحقيقي لما يشغل بال الإنسان أكثر من أي شيء آخر ، يعني ذلك : وعيه ... » .

يشكل عمل بافلوف (١٨٤٩ - ١٩٣٦) ، من وجهة منبئه ، مثلاً جيداً على رد فعل العالم الفيزيولوجي على الذاتية وعلى المذهب التشبيهي (بالإنسان) ^(١) في التأويل والتفسير اللذين يمكن أن يقدمهما علمُ نفس ، مؤسس على الاستبطان - الذي هو بالضرورة خاصة إنسانية صرفة . وساعد عمل بافلوف بحكم تطوره ونموه ، على تزويد علم النفس الموضوعي بمفهوم ثمين هو « الانعكاس الشرطي » : عندما نقرن منبهاً ما اصطناعياً (ضوء ، صوت ، الخ ...) بمنبه طبيعي لانعكاس ما (الاطعمة بالنسبة الى فرز العصارة المعدية مثلاً) يصبح هذا المنبه المصطنع (الضوء او الصوت المستعملان) قادراً بعد مدة من الزمن ، على احداث الانعكاس بغياب المنبه الطبيعي .

تدل الانعكاسات المشروطة على نمط عال في التكيف مع المكان : فالظروف عند اقترانها بتغير ما ، تستخدم كإشارة عند تكرارها ثانية ، لتدل على تكيف فيزيولوجي متناسب مع هذا التغير . وبالنسبة الى الإنسان تشكل اللغة « نظاماً ثانياً من اللجوء الى الاشارات » ، يمكن ان يحل محل الاحساسات المباشرة (النظام الأول) وبالتالي يوسع كثيراً مجال نمط التكيف . ومن وجهة نظر تقنية ، يمكن المنهج بصورة موضوعية من معرفة قدرة الإنسان والحيوان

على التمييز بين اثارتين: وعندها يجب ان يستعمل احدهما كإشارة على الانعكاس المشروط ، في حين يبقى الآخر بدون مفعول .

في سنة ١٨٩٧ ، وبمناسبة دراسة حول الهضم ، لاحظ بافلوف ان صوت خطوات خادم المختبر عندما كان يجلب الطعام للكلاب المستعملة كمواضيع للتجربة ، كان كافياً لأن يبعث لدى هذه الكلاب افراز العصارة المعدية وهذا ما سماه بـ « الافراز النفسي » . شرع بافلوف يدرس ذلك درساً منتظماً ، سنة ١٩٠٠ ، محاولاً تفسير الظاهرة هذه . وقام ضد رأي مساعده سنارسكي ، في ١٩٠١ ، الذي اقترح تفسيرات وصفها بافلوف بأنها « نفسانية » (والاولى القول بأنها ذاتية ومشبهة بالانسان) مشيراً الى « رغبات » أو « عواطف » الكلب . وانفصل بافلوف عن مساعده اذ ظل على الصعيد الفيزيولوجي مستنداً ومتذرعاً بالارتباطات العصبية المستقرة في القشرة الدماغية للكلب عن طريق التداعي بين صوت الخطوة وهضم الوجبة المقدمة له . وفي سنة ١٩٠٣ قدم بافلوف اكتشافه الى الجمع الطبي في مدريد . وابتداء من سنة ١٩٠٥ بدأ هو وتلامذته يتفرغون لسلسلة من الاعمال التجريبية حول الانعكاس المشروط ، دارساً شروط تكوينه وانطفائه ، ثم تعميمه وتخصيصه ، واخيراً التداخل بين عدة انعكاسات ، الخ ... وفي سنة ١٩٢٣ ، صدر كتاب بافلوف المعنون : « عشرون سنة من التجارب حول الدرس الموضوعي لنشاط الحيوانات العصبية العالي » . واحتفظ الكاتب بعنوانه أبان طبعه عدة مرات . وفي سنة ١٩٢٧ ترجمت الى الفرنسية طبعة سنة ١٩٢٥ تحت عنوان « الانعكاسات المشروطة » . وفي سنة ١٩٢٧ ظهر أيضاً كتاب « دروس حول نشاط الغشاء الدماغى » . وظهر مفهوم النظام الثاني للتشويرات (التأشيرات) سنة ١٩٣٤ في مقال عن « الانعكاس المشروط » ، كتب ا « الموسوعة الطبية الكبرى » . ويمكن التقريب بين هذا المفهوم لدور اللغة وبين المقطع التالي الذي كتبه بينيه في : « الدراسة التجريبية عن الذكاء » سنة ١٩٠٣ ، وهذا هو :

«لحجب ان تفهم بالثنييه Excitation^(١) ليس فقط دغدغة اعضاء الحواس بمعامل مادي ، بل وايضاً كل تغيير نحدثه نحن ، المختبرين ، عن قصد في وعي الموضوع تحت التجربة ؛ وهكذا تعتبر اللغة بالنسبة الى العالم النفسي منبهاً اثن بكثير ، بل وسأقول هو بدقة المنبهات الحسية . فاللغة يمكن ان تعطي للتجريب السيكولوجي اتساعاً ضخماً .

يمكن الاشارة ، الى جانب بافلوف ، الى اسم عالم اعصاب هو الطبيب العقلي الروسي بيشتيريف (١٨٥٧ - ١٩٢٧) الذي اشتغل مع فوننت في المانيا ، ومع شاركو في باريس (راجع الفصل الرابع) ، كتب هذا عدة مؤلفات عن علم الاعصاب وعن علم النفس ، وسام في كتابه عن « السيكولوجيا المتعلقة بالانعكاسية »^(٢) ، في تيسار الأفكار الرامي الى جعل السيكولوجيا علماً موضوعياً .

كما ظهر اهتمام الفيزيولوجيين بالقضايا السيكولوجية ايضاً ، في فرنسا ، في ابداءة العصر ، وبذلت العناية بالموضوعية التجريبية الدقيقة . وترك هـ. بوني منبره في كلية الطب في فانسي سنة ١٨٨٩ ليدر مختبر السيكولوجيا التجريبية في السوربون . وشجع أ. داستر A. DASTRE تلميذه هـ. بيرون PIÉRON (١٨٨١ - ١٩٦٤) على الربط المحكم بين الفيزيولوجيا وعلم النفس ، كما قاد اعمالا حول « الانعكاسات النفسية » . ونشر مالوزيل MALLOIZEL حول هذا الموضوع ، سنة ١٩٠٥ ، اطروحة مهمة . وقد اجري هذا ابجائه في الوقت ذاته لأبحاث بافلوف ، وبشكل مستقل . وخصص أ. غلي E. GLEY حامل درجة الاستاذية في الفيزيولوجيا ، ابجائه حول تأثير العمل الفكري . اما «ريشي» فسيكولوجي بقدر ما هو فيزيولوجي .

١ - استعملنا للدلالة على « المبر » كلمة : Stimulus

٢ - Psychoréflexologie

وجاءت المعلومات المتعلقة بالمناطق تحت القشرية، تضاف الى المعارف التي ثم الوصول اليها عن فيزيولوجية القسم الأعلى من الدماغ وهو اللحاء . وأحدث الفيزيولوجي الايطالي باغانو سنة ١٩٠٦ ، عن طريق حقن الكلب بسم نباتي في هذه المناطق، تصرفات تدل على الخوف، والقلق، والغضب والاعتدال كما دلت الابحاث اللاحقة العديدة ، الجارية خصوصاً بعد سنة ١٩٢٠ ، على ان هذا القسم من الدماغ يلعب دوراً مهماً في تنظيم الانفعالات والوجدانيات .

٥ - علم النفس الحيواني وعلم النفس الانساني. - يأتي التيار الثاني المعاكس لاستعمال الاستبطان، من علم النفس الحيواني الذي سنتكلم عنه بشكل اكثر منهجية في الفصل الثاني . في سنة ١٩٠٨ نشر هـ . بيرون ، في فرنسا ، في «مجلة الشهر» ، نص درس افتتاحي اعطي في السنة المنصرمة في المدرسة العملية للدراسات العليا حول «تطور النفسية» . وهذا هو البيان الحقيقي عن علم النفس الموضوعي الذي في نبذه لظواهر «الوعي» ، وفي ارتكازه على مراقبة ردود الافعال لجسم عضوي على بيئته وعلى سلوكه ، شمل بصورة واضحة السيكولوجيا الانسانية والسيكولوجيا الحيوانية . وقد كان هذا المؤلف حتى ذلك التاريخ يكرس معظم اوقاته لعلم النفس الحيواني .

كان ذلك النص واضحاً تماماً وجديراً بان يذكر هنا «... انه لمن الممكن ، بقدر ما هو ضروري ، لاقط انكار ، بل تجاهل ، الوعي في هذه الابحاث التطورية حول نفسية الاجسام العضوية» .

لكن اذا كانت هذه الابحاث لا تتناول الوعي ، فأى شيء اذن ستتناول اذا لم يكن قد درس قبل ذلك ، من قبل الفيزيولوجيا ؟ انها تتناول نشاط الكائنات وعلاقاتها الحسية - الحركة مع الوسط ، تتناول ما يسميه الامير كيون بـ The Behavior ، والالمان بـ das Verhalten ، والايطاليون بـ lo comportamento ، وما يحق لنا نحن الفرنسيين ان نسميه بسلوك comportement الاجسام العضوية . وفيما تهتم الفيزيولوجيا بتحديد اوالية

وظائف العلاقة هذه ، اذا أخذت معزولة وبمفردها ، يتوجب على علم النفس ان يدرس عملية هذه الوظائف وهي عملية معقدة ، وأولية استعمالاتها ، الأولية التي تتيح استمرار وديمومة الحياة .

لم يؤد هذا « البيان » في فرنسا الى ظهور « مدرسة » ، المدرسة التي ستنشأ بعد بضع سنوات حول ذات المفاهيم ومن نفس الكلمة في اميركا ، حيث « ثقل المواريث اخف وطأة » كما قال بيرون .

تلك هي « المدرسة السلوكية » behaviorisme التي أسست سنة ١٩١٣ من قبل ج. ب. واطسون . يرى هذا العالم هو ايضاً ، ان ملاحظة ردود الافعال لجسم ما من الخارج ، ومراقبة « سلوكه » ، يكفيان لاقرار قوانين تسمح بالتنبؤ عما ستؤول اليه هذه الردود عندما تتغير البيئة . وهكذا ، يمكن للعالم النفساني ان يؤكد ان الجرذ يميز بين الازرق والاخضر اذا توصل لأن ينجح في تدريب معين بموجبه يستطيع هذا الفأر اذا وضع في شروط وحالات تكون بحيث يستحيل عليه الاهتداء داخلها الا بالألوان - ان يتجه نحو طعامه الموجود في الدهليز الازرق من « متاهة » تجريبية ، وان يتجنب بانتظام الدهليز الأخضر الذي « كهربت ارضه الشبكية بتيار كهربائي . هنا اذن - ولحسن الحظ - لم تستدع الحاجة الإلتجاء الى افادة الكائن عن « حالات وعيه » . ولسوف يجهد واطسون في اثبات ان الامر في ما خص السيكولوجيا الانسانية هو مشابه لحال السيكولوجيا الحيوانية ، فنشر سنة ١٩١٩ « علم نفس » مرتكز فقط على المباديء . الا ان السيروتات العليا عند الانسان تشكل قضية عويصة : افيجب القبول مع واطسون بأن الفكرة هي « استجابة شفهية ضمنية » وانها على ذلك تتعلق هي ايضاً ، مبدئياً ، بالملاحظة الخارجية التي لا ينقصها مؤقتاً إلا الوسائل التقنية القوية ؟ اننا نفهم ان بعض العقائد « السلوكية » قد جرى جدال حولها ، لكن الاتجاه نحو سيكولوجية موضوعية تماماً امر لا جدال فيه .

اجرى واطسون ، ابتداء من سنة ١٩٢٠ اعماله على تعلم الجرذ لبعض الرحلات في « متاهات » تجريبية . ونشر سنة ١٩١٣ ، الجوهرى من هذه المبادئ العامة في مقال نشر في مجلة علم النفس بعنوان : « علم النفس كما يراه السلوكاني »^(١) . واهم كتبه هما : « السلوك . مدخل الى علم النفس المقارن »^(٢) و « علم النفس من وجهة نظر سلوكاني »^(٣) ١٩١٩ .

ولقد شكل الانعكاس المشروط ا « بافلوف » احد المناهج الاساسية في المدرسة الجديدة .

نستطيع ان نلحق بالمدرسة السلوكية ، بشكل خاص ، علماء نفس اميركيين مثل تولمان الذي حقق اعمالا هامة حول التعلم من الجرذ ، ثم لاشلي المعروف خاصة بأبحاثه عن الموضعات الدماغية . كما ساهم هول C. L. Hull مساهمة كبيرة في استخدام طريقة الصياغات الرياضية في مجال علم النفس التجريبي .

٤ — التطور الحديث

ان نمو الفروع المتحددة — على درجات متفاوتة — من علم النفس التجريبي القديم يجعل من التمسك نوعاً ما تحديد تخوم مجاله في الماضي القريب .

لقد توبعت دراسة « السيورورات العليا » ، الذكاء ، — بواسطة مناهج تجريبية — في علم نفس الولد من جهة وفي علم النفس الفارقي من جهة اخرى .

وعند الطرف الثاني من السلم ، فان « السيورورات الاولى »^(٤) ،

1 — Psychology as the Behaviorist Views it

2 — Behavior. An introduction to comparative Psychology

3 — Psychology from the standpoint of a behaviorist .

٤ — او العمليات الابتدائية : Processus élémentaires

الاحساسات ، بقيت تشكل مجال علم-نفس فيزيولوجي قريب من الفيزيولوجيا .
وفي هذا المجال استمرت دراسة الرؤيا تحتل منزلة كبرى .

وتحققت أعمال هامة في فرنسا بفضل هـ. بيرون الذي أنشئ له سنة ١٩٢٣
منبر لفيزيولوجيا الاحساسات في الكوليج دي فرانس ، ومن قبل تلاميذه
أيضاً . ثم ان نتائج هذه الاعمال والنتائج المنجزة خارج فرنسا حول هذه
المشكلات ذاتها قد جمعها هـ. بيرون وألف فيما بينها كتاب نشر عام ١٩٤٥
بعنوان « الانسان ، دليل الحياة » .

وتلك الابحاث التي ما برحت واقعياً ، تشكل مجالاً سيكولوجياً ، تحمل
بوضوح عنواناً يبرز صفتها التجريبية ، وتتجمع على ما يبدو ، وفي القسم الاوفر
منها ، في منطقة متوسطة تقوم بين السيوررات العليا « والبدائية » : يؤلف
الادراك والتعلم من بين هذه كلها ، الموضوعين الاثنين اللذين غالباً ما كانا يُبحثان
اكثراً من سواهما .

انه لمن الصعب دائماً ان نرسم الخطوط الكبرى ، بطريقة غير متحيزة ،
للميول والتأثيرات التي كانت مهيمنة في الماضي القريب . وبدون ادعاء الشمولية
فلا مشاحة من الاشارة ، داخل فرنسا ، الى التأثير الشخصي الهائل الذي أحدثه
هـ. بيرون ، الذي خلف في سنة ١٩١٢ بينيه ، في مختبر علم النفس في السوربون
ثم تولى ادارة هذا المختبر بـ. فريس P. Fraisse منذ سنة ١٩٥٢ . ولقد جمع
هذا الاخير بالتعاون مع جـ. بياجيه^(١) Piaget في كتاب « الموسع في علم النفس
التجريبي »^(٢) المنشور ابتداء من سنة ١٩٦٣ اسهامات عدد كبير من علماء النفس
الناطقين بالفرنسية . وفي الاتحاد السوفياتي فان التأثير الطاعني وربما كان التأثير
الوحيد تقريباً ، هو ما أحدثه بافلوف . اما في انكلترا وفي الولايات المتحدة
فيبدو ان العلماء المحجرين كانوا اشد انفتاحاً مما كان سواهم في اماكن اخرى ، على

١ - اقرأ له في منشورات عويدات : البنيوية . Le structuralisme

ضروب التقدم الذي اتاح تحقيقه الاخصائيون ، ولا سيما العالم الانكليزي فيشر Fisher في طريقة تنظيم وتأويل التجارب .

من المعروف ان المنهج التجريبي الكلاسيكي ، حسبما استخدمه كلود برنار ، يقوم على ابقاء جميع الاوضاع ثابتة فيما خلا واحد منها فقط يكون مفعوله ، على الظاهرة المدروسة ، ممكن البروز عندئذ للعيان مجلاء ودون التباس . بيد أن النتيجة لا تصلح عند ذلك الا فيما عن القيم او الحالات الخاصة التي تكون قد رسمت لتلك الاوضاع التي ظلت ثابتة دون تغير . أفلا تؤدي تغيرات في هذه الأوضاع الى تعديل في الـ « قانون » الذي يكون قد سن بموجب ذلك ؟ يحظى هذا السؤال بأهمية فائقة في علم النفس حيث توفر الأسباب الكثيرة ، الظن بأن العوامل المتعددة التي تحقق بسلوك جسم عضوي تؤثر في بعضها البعض . ولا غرو فانه لمن المستحيل عملياً ان نكرر مرات ومرات التجربة ذاتها لكي نستطيع الإجابة عن هذا السؤال فيما خص متغيرة (Variable) واحدة ، وان نعيد ، كرة اخرى ، السلسلة كلها لكل من المتغيرات . وتتيح المناهج الحديثة حل هذه الصعوبات بان تعمل على ان تغير بشكل متزامن (في نفس الوقت) وبطريقة معدة سلفاً وباعتناء ، بمجمل الاوضاع التجريبية . تؤوب هذه المناهج الى ر. أ. فيشر في مؤلفيه الاساسيين :

Statistical methods for reserch workers 1925

ولا سيما كتابه الآخر وهو : (1935) The design of experiments . وقد ظهرت للعيان هذه المناهج في علم النفس التجريبي حوالي سنة ١٩٣٨ ، اذ كانت حتى ذاك الحين مستعملة في الزراعة على الأخص . كذلك ساهم فيشر ايضاً في توسيع مدى تطبيق المناهج الاحصائية وذلك بأن أنهى تقنيات اتاحت استعمال ملاحظات ذات عدد محدود النطاق .

ان صياغة رياضية للمشاكل المتعلقة بالاتصالات الهاتفية قد قدر - في حقبة اقرب الى عهدنا هذا كذلك (حوالي ١٩٥١) - على استعمالها هي ايضاً .

فلقد عرضت هذه الصياغة أولاً من قبل شانون C . E . Shannon (١٩٤٨) ،
وبعد ذلك في مؤلف لهذا ذاته د . و . ويفر Weaver بعنوان: النظرية الرياضية
للاتصالات ^(١) (١٩٤٩) .

لم يظل الاحصاء المنهج الوحيد المستعمل من قبل علماء النفس ، اذ استعملت
الرياضيات في « النماذج » (الطرز) « Modèles » الحديثة ، في — على سبيل
المثال — النماذج الصدفية (Stochastique) للتعلم ابتداء من سنة ١٩٥٠
(و . ك . إيستر Estes ، ر . ر . بوش Bush ، وف . موستيلير Mosteller
الخ ...) . فاهيك بان « الجريدة الانكليزية لعلم النفس الاحصائي » صارت
تعرف عام ١٩٦٥ باسم : « الجريدة الانكليزية لعلم النفس الرياضي
والاحصائي » ^(٢) .

وبشأن التطبيقات العملية لعلم النفس التجريبي فلا مندوحة من التمييز بين
طائفتين اثنتين منها وهما :

— الطائفة الأقدم والأكثر أهمية حتى هنا مؤلفة من تطبيقات غير مباشرة :
هنا لا يتعلق الأمر باستعمال المعرفة العامة بالسيرورات المدروسة من قبل
السيكولوجيا التجريبية بل باستعمال لغة الفروق بين الأفراد ، بغية ، على سبيل
المثال ، الانتقاء والتوجيه المهنيين . وشكلت هذه الدراسة متميزاً نسبياً عن
سواه وسوف نتطرق له في الفصل الثالث .

أما الطائفة الأخرى من التطبيقات فانها تعود الى عهد أحدث بكثير ،
وهي تحوي الاستعمالات التي أخذت من الدراسات في المختبر على الإدراك ،
الحركية ، الخ ... وبالواقع فان هذه الدراسات تتيح تعريف الأوضاع التي
في داخلها يكون عمل ما ، هو العمل الايسر اجراءه . كما تستطيع هذه ايضاً ،

1 — The Mathematical Theory of Communication.

2 — British Journal of Mathematical and Statistical Psychology.

بالتالي ، ان توحى باجراء تعديلات في مراكز العمل وذلك بغية جعلها ممكنة
المنال والولوج على عدد اكبر من الأفراد (هندسة انسانية ، المجاهدية
أي ارغولوجيا) .

يعود تاريخ هذه التطبيقات الى فترة الحرب العالمية الأخيرة ، اذ دُعي
ابانها سيكولوجيو « المختبر » الى ان يستعملوا معارفهم لصالح المجهود الحربي .
وقد تناولت هذه التطبيقات باديء ذي بدء المشكلات العسكرية (تسلم
وتصرف بوظيفة قيادة طائرة ، مثلا) ثم اتسع نطاقها فشملت فيما تلا من زمن ،
مسائل صناعية (قيادة آليات ، أجهزة القراءة الموجودة في بعض
الأدوات ، الخ ..) .

علم النفس الحيواني

٢

١ - تطور الافكار

٢ - تطور المناهج

١ - تطور الافكار

رأينا فيما سلف ، في مجرى الفصل المنصرم ، الروابط التي تجمع علم النفس « التجريبي » بعلم النفس « الحيواني » . انه لمن البديهي تماماً ان تكون امكانيات التنويع في ظروف البيئة اكثر اتساعاً لدى المجرّب الذي يجري اعماله على الحيوانات . بل ان هذا يستطيع ، في الحالة هذه ، إذا كان أيضاً فيزيولوجياً ، ان يحقق تحديات في الاعضاء في سبيل ان يثبت من فرضياته المطروحة على ميكانيزمات السلوكات التي يلاحظها .

يتألف الميراث السحيق لعلم النفس الحيواني من نوعين من المؤلفات : مؤلفات علماء الحيوان ، وكذلك كما هي الحال بالنسبة لعلم النفس التجريبي من مؤلفات الفلاسفة أيضاً .

من البديهي ان تكون اقدم الملاحظات على الحيوانات وعلى عاداتها مدينة بوجودها للصيادين والقناصين . ولا غرو فان فضول العلماء الطبيعيين المنزه هو أحدث عهداً من عهد الملاحظات هذه . بيد ان اولئك وهؤلاء كانوا يصفون جيداً التكيفات adaptations التي تحصل بين مواضعهم هذه ، (الحيوانات) وبين تنوعات الشروط البيئية ، من ثم فانهم كانوا ، بالتالي ، يقومون تماماً ، وبمعنى من المعناني ، بعمل يؤول الى « علم النفس الحيواني » . إلا انهم غالباً ما كانوا يشرحون السلوكات^(١) التي كانوا يلاحظونها وفقاً لأهداف ولغايات يكون من المعقول اكثر ان تعزى لانسان يقوم بهذا السلوك ذاته . اجل ! لقد

١ - السلوكات : جمع سلوك .

ظلوا في الاغلب « غائبين » ، و « مشبهين بالانسان » ^(١) . التجريب ضروري لمعرفة ما هي ، بالنسبة للحيوان ، الاسباب المحددة للسلوكات التي نلاحظها ، اذ تكفي تغييرات اصطناعية في الاضاءة ، لكي نبعث لدى بعض الحيوانات طيرانات هجروية ليست في موسمها ، كذلك فانتناحدث سلوكات امومية لدى اناث ، بواسطة تماثيل او مشابهاة لا تحوي سوى بضع من صفات الذكور (وعند ذاك نستطيع تحديد تلك الصفات بالضبط) ، الخ ...

ان التخلي عن الموقف التشبيهي ثم استعمال التجريب مقرونا بالملاحظة اديا بعلماء الحيوان الى ان يعملوا في ميدان وبمناهج سيشاركون بها مع علماء النفس فيما بعد .

تشكل دراسة الحشرات احدى هذه الميادين التي تجلى فيها هذا التطور على احسن وجهه . في فرنسا ، نشر ريومور Réaumur مذ عام ١٧٤٠ ، كتاب : « مذكرات لأجل خدمة تاريخ الحشرات » ^(٢) . كما ان العشرات الاوائل من سني هذا القرن شهدت نمو اعمال ب. مارشال ، أ. ل. بوفيه ^(٣) ، جي. بونيه ^(٤) ، أ. روبرو ^(٥) ، سي. فرتون ^(٦) ، أ. رابو ^(٧) ، وهذا من بين اعمال عديدة اخرى . إلا ان المساهمة الاكبر اهمية في هذا الميدان كانت بلا ريب مساهمة استاذ علم الحيوان في جامعة مونيخ ، ك. فون فريش Frish

١ - مشبهون بالانسان anthropomorphistes اي يخلعون صفات الانسان على الحيوان ، انهم حشريون .

2 - Mémoires pour servir à l'histoire des insectes .

3 — Bouvier

4 — G. Bonnier

5 — E. Roubaud

6 — C. Ferton

7 — E. Rabaud

الذي ، منذ عام ١٩١٥ تقريباً ، راح يدرس سلوك النحل . كان اكتشاف « لغة » النحل ، أي معنى « الرقصات » التي تقوم بها الجارسات الآبية الى قفيرها ، لكي توجه طيران مثيلاتها من النحلات صوب الأزاهير التي تكون قد وجدتتها ، اكتشافاً يشكل ، من بين اكتشافات عديدة أخرى ، مساهمة مدينة بوجودها لـ « فون فريش » . وقد لاقى كتابه عن « حياة النحل » (١٩٢٧) (١) ، نجاحاً ساحقاً وترجم ، بشكل حاضر ، الى الفرنسية عام ١٩٥٥ ، كما شكلت حيوانات اجتماعية أخرى ، الأرضيات ، موضوع دراسات مهمة قادها العالم الاحيائي الفرنسي ب . غرامسي منذ ١٩٣٧ .

إلا أن علم النفس الحيواني ، كعلم النفس التجريبي ، ورث بعض مشاكله الأولى عن الفلسفة . وفي الواقع فقد بدت مشكلته الأساسية ، إبان رده من الزمن ، مشكلة معرفة ما اذا كانت سلسلة الكائنات الحية ، من الإنسان حتى الحَيَينيات (٢) ، تشكل أو لا تشكل سلسلة مستمرة ومتواصلة . ولتلك المشكلة أصول بعيدة . وقد شغل بها ديكارت بشكل خاص ، وذلك عندما حاول أن يظهر أن فرقاً في الطبيعة موجود بين الحيوانات ذات السلوك الذي قد يستطيع تفسيره كله بخصائص المادة ، وبين الإنسان الذي تشارك فيه المادة مع الوعي . قد يستطيع أن يبني صانع ماهر حيواناً ، ولكنه لن يستطيع أبداً أن يبني انساناً .

وفي المدة الاقرب منا ، فان النظرية الداروينية في التطور طرحت بطريقة اكثر مباشرة ، المشكلة ذاتها على علم النفس الحيواني . من المعروف ان ش . دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢) الذي نشر كتابه « اصل الانواع » ، في عام ١٨٥٩ ، يرى ان الفروقات بين أفراد النوع الواحد ، هي مسؤولة عن تطور الانواع وعن

١ - (1927) Aus dem leben der Bienen .

٢ الحيينيات وهي الأجسام الصغرى ، المجهرية ، أي : Micro - organisme

تكيفها الظاهري مع البيئة . فهو ينادي بالواقع بكون هذه الفروقات وراثية ، وبأن الأفراد الذين ينتفعون من الشيات [الخصوصيات] التي وفرت لهم الحياة ، يتمتعون بفضل هذا الأمر الخاص بهم ، بحظوظ أوفر في البقاء وفي نقل هذه الشيات التي انقردها إلى ذريتهم . ان اواليات تطور من هذا القبيل تستلزم الكثير من التعديلات غير المحسوسة من جيل إلى آخر ، كما تقتضي بالتالي استمراراً في السلسلة الحيوانية . هل هذه الاستمرارية موجودة سيكولوجياً؟ أو اننا سنشهد الوعي والذكاء يبرزان فجأة عند درجة ما في السلم ، الذي كان قد اختاره ديكارت أو أحد غيره ؟ لقد دلّ دارون ذاته على الطريق لهذا النموذج من الابحاث وذلك بنشره في ١٨٧٢ كتابه : « التعبير عن الانفعالات لدى الانسان والحيوان » ^(١) ، حيث حاول ان يبين ان الإيمائية الانفعالية عند الانسان هي بقاء سلوك كان نافعا في زمن يعود الى بضع آلاف سالفة من السنين . مما هو لم يعد اليوم سوى برطمة ^(٢) احتقار أو تكشيرة غضب كان حينذاك ، وهذا أمر جائز ، استعداداً للعض .

ترتسم هذه الاهتمامات بطريقة واضحة تقريباً في الخطط الخافي الأبحاث التي جرت في طرفي السلم الحيواني .

ان الاجسام السفلوية (الدنيا) من جهة ، والقردة العليا تلك التي هي الاقرب للانسان من جهة أخرى ، تطرح بالواقع المشكلة هذه بطريقة مختلفة ولكنها اساسية ايضاً .

ان الكثير من الحيوانات ، عند اخضاعها لتأثير منبه مسا ، كالضوء مثلاً ،

1 - Expression of emotions in man and animals

٢ - برطمة : مط الشفتين (تبويز حسب الكلمة الدارجة) تعبيراً عن انفعال (غضب ، امتعاض ، اشمزاز) .

تنتقل من مكانها لكي تقترب أو تبتعد عن هذا المنبه . يشكل هذا السلوك انتحاء (وهو انتحاء ضوئي (استضاءة) في المثل المذكور) . درس العالم الاحيائي ج. لوب (١٨٥٩ - ١٩٢٤) الاستضاءة لدى الحيوانات السفلوية ، محاولاً شرحه بطريقة هي بكاملها ذات نزعة ميكانيكية ، وتتقضي بأن توجه الحيوان قد يبقى متغيراً الى ان يصبح التنبيه الذي يجلبه المصدر متساوياً على جانبي الجسم . من اليسير ان نتصور (سيما منذ مجيء الاحيائية الآلية = قبطانية = سيبرنيطيقا) جهازاً يكون بتمامه وكاله فيزيائياً حاوياً وممثلاً خصائص من هذا القبيل . ان النظرية التي شرع لوب في رسم خطوطها العريضة في ١٨٨٩ ، قد اخذت شكلها النهائي سنة ١٩٠٦ في كتابه : « ديناميكيات المادة الحية » ^(١) . فقد رأى لوب ، في مثل هذه الانتحاءات ، العناصر المكونة للفرائز وللأعمال الارادية .

كان هناك بيولوجي آخر « جيننفس » (١٨٦٨ - ١٩٤٧) ، أقل اهتماماً من لوب بالنظريات ، قد انكر مذهب هذا الأخير . ان انتماءات الأجسام السفلوية مثل النقاعيات والمجوفات ^(٢) لا تبدي ابداً ، كما لاحظ بنفسه ، تلك الصفات المحددة بشكل دقيق وجازم والتي يعزوها لوب الى هذه الأجسام . ذلك انه ابان ردود الفعل المتنوعة ، كان هناك تعلم حقيقي عن طريق « المحاولات والأخطاء » يتكون ابتداء من ذلك المستوى ، وهذا التعلم هو ما يعود فيقيم الاستمرارية في السلسلة الحيوانية . وفي سنة ١٩٠٤ نشر جيننفس كتابه المعنون « سلوك الاجسام السفلوية » ^(٣) .

1 - The dynamics of living matter (1906)

٢ - نقاعيات Infusoirs : حيوانات مجهرية ذوات الخلية الواحدة ، تعيش في السوائل وفي نقاعات المادة العضوية ، المجوفات Coelentérés : مجوفات البطن .

3 - Behavior of the lower organisms .

ثم كان ، وبالضبط في معرض الطريقة التي يتعلم بها الحيوان من جهة والإنسان من جهة أخرى كيفية حل مشكلة جديدة ، ان اعتقد بعض المؤلفين انهم قد وجدوا مبدأ الفصل بين هذا وذاك ، عند الطرف الآخر للسلم الحيواني .

أرصد الاميركي ثورنديك (١٨٧٤ - ١٩٤٩) على حيوان مصنوم (كلب ، هرّ ، قرد) داخل قفص . كان الحيوان يرى الطعام في الخارج ، ولكي يحصل عليه ، كان لا بد له أن يعتق نفسه وذلك بأن يحرك اوالية بسيطة ، كان يجذب ، على سبيل المثال ، حبلًا . وهنا يلاحظ كيف يجري التعلم . ان محاولات هي عشوائية تماماً كانت تؤدي الى نجاحات اعتباطية . وبالتدريج ، كان الحيوان يحصل على النجاحات بوقت اسرع : يجري كل شيء كما لو كان الفوز قد ساهم في ان « يثبت » الى حد ما ، التعريبك اليدوي الذي أتاح الحصول على الفوز « قانون الأثر » .

وهذا التعلم بـ « المحاولات والأخطاء » لا مجال فيه مطلقاً لاختفاء فجائي ونهائي للتلمّس Tâtonnement ، أي كما هي الحال عندما « يفهم » انسان ما فجأة المشكلة الملقاة عليه . كمنح العالم الطبيعي الفرنسي بوطان في سنة ١٩١٤ هذا الفرق ، قيمة حاسمة لأجل التمييز السيكولوجي بين الحيوان والانسان . إلا أن أعمالاً أخرى على القردة - أعمال ر. م. يركيز ابتداء من ١٩١١ ، أعمال كوهلر منذ ١٩١٥ ايضاً ، أعمال غيوم (١٨٨٧ - ١٩٦٢) ابتداء من ١٩٢٣ ، وغيوم وميرسون ابتداء من ١٩٣٠ - أبدت أن هذه الصفة ليست مميزة وان الاستمرارية ، في أوضاع تجريبية مضبوطة ، تتحقق تماماً بين السلوكات « الذكية » للقرد وللانسان .

بيد أن الاهتمام ينثلم بسرعة نوعاً ما ، إزاء تلك المشكلة العامة ، والعامة كثيراً ، المتعلقة باستمرارية السلم الحيواني من جهة الـ «وعي» أو الـ «ذكاء» . وانا

لندرك أن جواب المجربين يختلف بمقتضى المحك الذي ينتقونه لدى تعريف الوعي . فهو : امكانية روح المبادرة بنظر « بيتي » (١٧٩٨) ، متواحد مندغم بالذكاء لدى « هاثي سوبلي » (١٩٠٠) ، ملكة التعلم عند لوب (١٩٠١) ، اشارات قياسية غير مباشرة بمفهوم « لوكاس » (١٩٠٥) ، تخصص الجهاز العصبي وتظهر في التمييز ولين العريكة وروح المبادرة عند يركيز (١٩٠٦) . على ذلك نتبين بشكل خاص إمكانية علم نفس لا يستخدم مفهوم الوعي الذي يُتَقَنَّ أنه غير قابل للتعريف بشكل موضوعي ، علم نفس السلوك (بيرون ، ١٩٠٧ ، واطسون ١٩٣٢) . ومثند الفت تلك المشكلة نفسها ، التي هي ظاهرياً أساسية في علم النفس الحيواني ، وقد طرحت خارج ميدانها . اذا كانت بعض الأبحاث قد استمرت في التتابع بشكل متواز على الانسان وعلى الحيوان ، فانها أضحت تجري بروح مغايرة تماماً ، وهو ما انفك منذ ذاك وصاعداً يتصف به علم نفس الحيوان .

يمثل هذه الروح ، استمرار اهتمام العالم النفسي في تجاوز الحيوان الخاص الذي يجري عليه اعماله . فقد أبدت التجريبية ، بالواقع ، ان بعض التكيفات كانت تجري وفقاً للسيرورة نفسها عند الحيوان وعند الانسان وان نتائج حُصِل عليها عند الحيوان ، لا مشاحة في أن يكون لها مدى عاماً . ولا يقضي مثل هذا التأكيد أو معاينة هذا الأمر ضرورة طرح مشكلة « الوعي » لدى الحيوان .

هذان مثلان ، عند طرفي السلم الحيواني : علّم بيرون (١٩٠٩) حلزونات (رخويات صغيرة معديات الأرجل^(١)) أن لا تقوم برّد فعل عند تعتم المصدر الضوئي الذي يثيرها ، ثم درس الـ « نسيان » لهذا التعلم ، مستخدماً لذلك منهجاً مماثلاً للمنهج الذي كان ابنفهموس قد استخدمه على أفراد من البشر نسوا لائحة من مقاطع كلمات (منهج الاقتصاد) . لقد كانت الصلة التي اقامها بين الوقت

والأثر الذاكري عند الحلزونات تطبق أيضاً على نتائج ابن نفوس . ثم أنه قد سبقت الإشارة الى تجارب ب . غيوم واي ميرسون (ابتداء من ١٩٣٠) على استخدام الآلة عند القرد . كرّر ك . غوتشالت تجارباً متماثلة تماماً على مجموعات من الاولاد الطبيعيين والمتخلفين . لقد كانت النتائج مترازية (١٩٣٣) .

ثم لما إذا يجهد العالم النفسي باحثاً عند الحيوان عن نتائج قابلة للتعميم على الانسان ، عوضاً عن أن يدرسها مباشرة لدى هذا الاخير ؟ فيما خلا امكانيات التجريب التي هي أكثر اتساعاً ، نجد أن هذه الفائدة معللة بأسباب عدة .

— في بداية الامر ، أن سيرورة ما هي غالباً ابسط عند الحيوان بمعنى انها لا تتدخل قط ، أو انها تتدخل بدرجة اقل ، مع سيرورات اخرى ، وخاصة مع مكتسبات سالفه . ثم أن هذا الشيء يصبح أقرب إلى الحقيقة كلما هبطنا إلى درجة ادنى فأدنى في السلم . بل ويشكل هذا ، على سبيل المثال ، احد الاسباب التي دفعت غ . فيو (Viaud) ^(١) (١٨٩٩ - ١٩٦١) لأن يدرس الاستضواء الحيواني عند براغيث الماء ^(٢) (١٩٣٢) .

— من جهة ثانية ، تتيح الدراسات على الحيوانات ، التصدي لبعض المشاكل على مستوى أقل ابتدائية مما قد تتيحه ابسط التجارب على الانسان ، وهي بهذا تتيح لنا أن نفهم على وجه أحسن طبيعة هذا الاخير . تلك هي الحال مثلاً في دراسة الاختراع لدى القرد الذي يشكل معضلة بالنسبة له ، نقل صندوق لوضعه تحت طعم لا يستطيع أن يطاله بدون أن يرتفع عن الأرض .

— اخيراً ، إن مجرد وجود قوانين صالحة في الوقت نفسه من أجل الانسان

١ - برغوث الماء (daphnie) هو نوع من الدويبات الصغيرة المائية ينتمي الى القشريات .

والحيوان، لا يستلزم بالضرورة اتجاهها ذا نزعة تشبيهية تقضي بأن تشرح سلوك الحيوان باللجوء إلى سلوك الانسان . بالعكس ، انه لمن « المقتصد » أكثر أن نلجأ بالنسبة للانسان إلى التفسير البسيط، الكافية بالنسبة للحيوان . على هذا، وقد سبق أن رأينا ذلك ، فان مفهوم « الوعي » يكون خاصاً فقط بالانسان، قد تخلى عنه في الوقت عينه الذي اهتم فيه منهج الاستبطان .

لقد رافق تطور الافكار الذي كنا هنا نعيد اقتفائه ، تطوراً في المناهج أيضاً .

٢ - تطور المناهج

لقد كان في انكلترا باديء ذي بدء (سبق أن أشير إلى أهمية افكار دارون) أن بزغ علم النفس الحيواني . اقتصر عمل « رومانس » (١٨٤٨ - ١٨٩٤) على تأليف حكايات ، البعض منها مرتاب بصحته . واقد شكلت هذه الحكايا جوهر كتابيه : الذكاء الحيواني (١٨٨٢) ، والتطور الذهني في الحيوانات (١٨٨٣)^(١) .

بدأ استخدام المناهج العملية مع « مورغان » (١٨٥٢ - ١٩٣٦) ، إذ تبنى قاعدة بشرت إلى حد ما بتحدي علماء نفس السلوك لتفسيرات ذات مفردات تؤوب إلى الوعي وهي أن : لا تأويل قط لعمل ما على أنه نتيجة ملكة نفسية عليا إذا كان من المستطاع أن يشرح بملكة أقل ارتفاعاً . عرف مورغان كيف يلاحظ في أوضاع طبيعية حياة الحيوانات وعرف أيضاً كيف يغير هذه الأوضاع لكي ينير ملاحظاته ، وهذا ما شكل ظهور المنهج التجريبي ، في هذا الحقل . وقد نشر كتابين : حياة الحيوان والذكاء (١٨٩٠) ، وسلوك الحيوان

(١٩٠٠).^(١) فكان تأثيره كبيراً جداً على لوب .

حاول ج . لوب (١٨٥٩ - ١٩٢٤) ، وهو الماني اشتغل في اميركا ، أن لا يستخدم سوى منهج فيزيائي - كيميائي في شرحه للانتحاءات . إن محاولة من هذا القبيل تؤول إلى نفي الوجود نفسه لموضوع يكون خاصاً بعلم النفس .

كما حاول المان آخرون ، ت . بير ، بيتي ، فون اويكتول ، هم أيضاً ، أن يردوا علم النفس إلى فيزيولوجيا الجهاز العصبي . ففي مقالة عام ١٨٩٩ ، عرضوا مفرداتية [مُعْجَمِيَّة] جديدة مخصصة لأن تحل محل المفرداتية السيكلولوجية المدنسة ، بنظرهم ، بالذاتية والمؤسسة على الاستبطان . على ذلك ، يقال استقبال الضوء عوضاً عن احساس بصري ، الخ ... هذا التضاد بين الفيزيولوجيا وعلم النفس (والذي بدا أيضاً لدى بافلوف في ١٩٠١ بصدد تأويل « الافراط السيكلولوجي ») هو تعاكس يرتكز على مسلمة قابلة للنقاش وبوجوبها لا يكون منهج علم النفس إلا منهجاً ذاتياً . أن استحالة استخدام يكون بلا قيد ولا شرط للمفرداتية الفيزيولوجية ، بنظر هؤلاء المؤلفين الالمان ، يظهر تماماً ، وجود حوادث موجودة على صعيد آخر وقابلة لأن تلاحظ على سلم آخر . لم تنل مفرداتيتهم « الموضوعية » نجاحاً كبيراً ، ولقد سبق أن أشير إلى معارضة جيننفس (١٨٦٨ - ١٩٤٧) لهذه المدرسة ذات النزعة الميكانيكية .

كانت سائر هذه المناقشات تدور بين علماء احيائيين . بيد انها شكلت الاعمال الاولى لعلم نفس حيواني أضحى بالتدريج علماً مستقلاً . وقد افتتحت مختبرات خاصة بهذا العلم في جامعات كلارك ، هارفارد ، شيكاغو ، فيما بين ١٨٩٩ و ١٩٠٣ . أما في فرنسا ، ومع وسائل أقل أهمية بكثير ، فقد تعرض ه . بيرون لهذا الحقل في سنة ١٩٠٤ في « مناهج السيكلولوجيا الحيوانية » ، و« اللاحركية

1 - Animal life and intelligence ; Animal behaviour .

الحفاظة للحيوانات «^(١) ، الخ...) ، وغالباً ما جرت أعماله على اللافقرات البحرية، كما انها جرت بشكل خاص على الاحاسيس المختلفة وعلى الذاكرة .
بيد أن القسط الاوفر من الاعمال قد جرى تحقيقه في الولايات المتحدة .

لقد ذكرت أعمال ثورنديك ، وهي اعمال جرت سلسلة طويلة جداً من الدراسات على «التعلم» ، مستكدةً حولها القسم الاعظم من أعمال علم النفس الحيواني . أضحت الفئران المعتاد المفضل لدى الباحثين الاميركيين . فكان «سمول» ، في عام ١٩٠٠ ، هو الذي حقق التجارب الاولى المتعلقة بالتعلم على متاهة من قبل الفئران . ثم بين واطسون ، في ١٩١١ ، اننا نستطيع أن نؤكد بأن منبهين يكونان مختلفين بالنسبة للحيوان ، إذا استطاعا أن يشكلا اشارات تتيح له أن يميز الرواق الحاوي على المكافأة من ذلك الذي سيكون فيه هذا الحيوان «معاقباً» . انطلاقاً من هنا ، اخذت دراسة التعلم على الفأر امتداداً الى درجة أصبح فيها من المستحيل أن نخطط (Schématiser) نمو هذه الدراسة بعدة سطور . ساهم «السلوكيون» الاميركيون ، الذين جرى البحث عنهم في الفصل السابق ، في هذه الدراسة وذلك على نطاق واسع .

أجرى «يركيز» أعماله على سائر المستويات للسلم الحيواني ابتداء من السلطون حتى القرودة الشبيهة بالانسان . بل انه ذهب إلى أبعد من ذلك واقترح في سنة ١٩١٣ أن لا يقصر علم النفس «المقارن» على علم النفس الحيواني ، وان نستخدمه بصدد المقارنات بين الجماعات البشرية (في الوقت الراهن : علم النفس الفروقاتي أو الاجتماعي) ، وبين الولد والبالغ (وهو ما يسمى في الوقت الراهن بعلم نفس الولد) ، بين السويين واللاسويين (في الوقت الراهن : علم النفس المرضي) . ولقد قاس يركيز ، بواسطة روائز ، الذكاء لدى اللاسويين . كما

1 – Les méthodes de la Psychologie zoologique . L'immobilité protectrice des animaux .

شارك أيضاً في الاختبار السيكولوجي للجيش الاميركي ابان الحرب الكونية الاولى .

سبق ان كانت الاثارة المباشرة لبعض المناطق من الدماغ ، أو تحطيمها ، قد استخدمت من أجل تحديد مكان [تموضع] المراكز الحسية والحركية « فريتش » « وهيتسينغ » ، ١٨٧ ، الخ . .) . ولم تطبق مناهج من هذا القبيل إلا في وقت متأخر على دراسة السلوكيات الأكثر تعقيداً: كالتساب العادات أو التعلّيمات [أنواع التعلم] « فرانتس » ، ١٩٠٢ ، « ليشلي » ، ١٩١٧ .

ولقد امتدت هذه حديثاً ، بواسطة تسجيل النشاط الكهربائي للدماغ وهو ما أجري عند الحيوان بواسطة العالم الفيزيولوجي الانكليزي « كيتون » منذ ١٨٧٥ ، أي قبل ٥٠ سنة تقريباً من الملاحظات الأولى على الانسان (هـ . برجيه ، ١٩٢٩) .

يدرك بيسر أن هذه الدراسة السيكوفيزيولوجية للدماغ تجري بشكل اسهل على الحيوانات منه على الانسان . كما كان يجوز أن نتوقع أيضاً من الدراسات التجارية على المجتمعات الحيوانية (النحل مثلاً) أن تجلب ذات يوم مساهمة ما إلى علم النفس الاجتماعي . انه لمن المدهش أكثر أن نرى أعمال علم النفس الحيواني ، كأعمال « ك . لورنتس » تعود فتلتقي مع بعض المفاهيم التي جذب فرويد اليها الانتباه بصدد المصدر لبعض اضطرابات السلوك لدى الانسان .

اشتغل لورنز خاصة على العصافير والاسماك ؛ وفي سبيل مراقبتها بطريقة مستمرة ومن ثمة وصف السلوك الكامل لكل نوع منها ، فانه لم يتردد قط في أن يشاركها في حياتها بشكل كان صميمياً إلى اقصى درجة ممكنة ، كما سبق أن كان قد فعل قبله ، على سبيل المثال ، « هوينروث » في المانيا . كان بيت لورنز في ألتنبرغ مأهولاً بالعصافير التي كان يربّيها في حرية وقد توصل إلى أن

يستخدم الـ « لغة » الخاصة بها ، أي بعض الاشارات المستخدمة بين أفراد من نفس النوع الاجتماعي . ولقد حقق هذا العالم دراسات جمّة ، كانت على الاغلب بتعارض مع تنبؤات « بواحدة » أو «مؤهات » و « افخاخ » أتاح التدقيق في نوع الاشارات (أشكال ، الوان ، حركات ، الخ ...) التي تُشرع بعض ردود الفعل لدى نوع معين . ومن الممكن أن يشكل الملاحظ نفسه إحدى هذه « المؤهات » المذكورة . هذا « الطابع » (empreinte . Imprinting . Prägung) الذي هو ، بنظر لورنز ، قد يكون نهائياً ، يذكر بالاهمية التي يمكن أن تنالها ، حسب فرويد ، التجارب الانفعالية الأولى للولد (انظر الفصل الرابع) .

علم النفس الفارقي

٣

١ - أصول دراسة الفروقات الفردية

٢ - النظريات المتعلقة بالفروقات الفردية

٣ - نمو التطبيقات العملية

سيان أخذ علم النفس التجريبي كموضوع له الانسان أم الحيوان ، فهو في جوهره علم نفس عام . ذلك أنه يبحث عن قوانين صالحة للنوع الانساني قاطبة ، بل وحتى لسائر الكائنات الحية . بيد اننا إذا اعتبرنا مجموعات مختلفة من الافراد (الرجال والنساء مثلاً) بل وحتى افراداً مختلفين ، فانتنا ندرك أن المجموعات كلها والافراد جميعهم لا يتكيفون بطريقة متشابهة تماماً مع نفس التغيير في أوضاع الوسط . ذلك أن « القانون » ، الصلة ، هو حقيقي وصائب في شكله العام بالنسبة للنوع برمته ، بينما نراه يختلف ، ضمن بعض الحدود ، حينها نلاحظ بالتتابع أفراداً معينين . وتشكل دراسة هذه الفروقات الفردية موضوع علم النفس الفارقي . يدين هذا التعبير بوجوده للعالم النفسي الالماني شترن Stern الذي استخدمه سنة ١٩٠٠ في العنوان التحقي لكتابه التالي - über (psycho . der individuellen Differenzen Ideen zu einer differentiellen Psycho .) إلا أن المبدأ أقدم من ذلك . فقد سبق لنا أن صادفناه في موضوع « المعادلة الشخصية للفلكيين » . ومعرفة لماذا خطأ ما يُرتكب حتماً عند استخدام منهج برادلي هو أمر يعود إلى علم النفس العام . أما تحديد هذا الخطأ لدى كل ملاحظ بمفرده ، بغية تصحيح الملاحظات التي يجريها ، فهو ما يؤلف مشكلة تخص علم النفس الفارقي ، وهي مشكلة مفروضة بحكم ضرورات التطبيق العملي .

ثم أن تجربة فيبير التي سبق الكلام عنها ، تقدم لنا مثلاً آخر حصل في النصف الأول من القرن التاسع عشر . من المعروف أن فيبير اكتشف أن الشخص

الذي يميز بمشقة ٢٩ أونصة عن ٣٢ أونصة، كان يميز بمشقة أيضاً ٢٩ دراخم من الـ ٣٢ دراخم، هذا بينما تساوي الاونصة الواحدة ثمانية دراخمت . لنضف على ذلك أن فيبير كرر التجربة على ثلاثة أشخاص بحيث تأهل له ثبات النسبة بين أصغر فرق قابل للدراك عند هؤلاء الأفراد الثلاثة، وبين الضخامة المطلقة للمثير بالنسبة اليهم، وذلك عندما انتقلوا من الاونصات إلى الدراخمت . إلا أنه إذا بقي كل منهم أميناً مع نفسه (وهذا الانتظام هو ما يشكل « قانون فيبير ») ، فإن هذه النسبة تختلف من فرد إلى آخر. فهي تساوي ٢/٣٢ لدى الشخص المذكور سابقاً، وهي تساوي لدى الآخرين، ٢/٣٢ و ٦/٣٢ . لقد صعد فيبير بذلك الثبات في النسبة لدى الفرد الواحد نفسه، لا بتغيرها بين فرد وآخر . وهكذا كان أيضاً اتجاه فونددت، وعلى هذا فقد كان علم النفس التجريبي في البدء علم نفس عام لا علم نفس فارقى .

صنفان من الاهتمامات راحا يدفعان تخصص قسم من الأعمال التجريبية باتجاه دراسة الفروقات الفردية .

— كان البعض من هذه الاهتمامات، بالاخص نظرياً . فقد نجمت هذه من الداروينية مباشرة كما أنعشتها، أولاً أعمال ف . غلتون Galton وأدت إلى النمو الهائل للاحصاء المطبق على علم النفس، وهو ذو كانت ابانه المجالات الجوهريّة مدينة بوجودها لبريطانيين، كما كان لهذا النمو نتائج على توجه فروع علم النفس الأخرى .

— أما الاهتمامات الأخرى فكانت بالاخص عملية . إن امكانية تطبيق علم النفس الجديد على مشاكل اجتماعية، وهي امكانية لم تخف على غلتون، قد تجسدت، في البداية، في أعمال ج . ماكين كيتل (Cattell) .

وبفضل مناهج احصائية مطورة نحو غايت يغلب عليها الطابع النظري، وبفضل فوز بيني في قياس « سيوررات عليها»، فإن هذه التطبيقات قد انتشرت انتشاراً هائلاً في عدد كبير من البلاد ولا سيما في الولايات المتحدة .

١ - اصول دراسة الفروقات الفردية

نحن نعرف أهمية الدور الذي تلعبه الفروقات الفردية في نظرية التطور التي اقترحها دارون سنة ١٨٥٩ . وتلك التي من بين هذه الفروقات تيسر تكيف الفرد مع البيئة . فهي أيضاً ، بحكم ذلك ، تزيد من فرصه في البقاء ، وبالتالي في امكانياته بان ينجب ذرية تحوز هي أيضاً صفات صالحة ملائمة ، هذا إذا كانت هذه الصفات وراثية . إن نظرية من هذا القبيل كانت تستطيع أن توحى بدراسات تجريبية مختلفة ولا سيما : مدى الفروقات المدركة عند الانسان من حيث النظر لصفات قابلة للقياس ، ومناهج هذه الفروقات ، وصفتها الوراثة . وستلقى هذه الدراسات دفعا حاسما من قبل نسيب لدارون ، هو ف . غليون .

لقد اهتم السير فرنس غلتون (١٨٢٢ - ١٩١١) وهو عالم انكليزي نبيل ، بطريقة باهرة لكنها غير منهجية ، بشق ميادين العلم في عصره وأشدها اختلافاً . مع ذلك يبدو جلياً أن علم النفس ، وبشكل اعم ، دراسة الانسان ، هما اللذان انتفعا إلى الحد الاكثر من مجلوباته واسهاماته . ويمكن فضله الاساسي في تبيانته جدوى وخصوصية دراسة علم الاحصاء للفروقات الفردية والوراثية .

قبل غلتون ، كان العالم الرياضي البلجيكي كيتلي (١٧٩٦ - ١٨٧٤) قد اكتشف (١٨٣٥) أن مجموعات من المعطيات المحشودة عن جماعات كبيرة من الناس (وبشكل خاص عن قامات الجنود في الجيش النابليوني الكبير) كانت تتوزع حسب قانون سبق للعلماء الرياضيين أن درسوه (قانون لا بلاس - غوس) ، وسبق أن وجد في دراسة أخطاء القياس ان الكثير من الجنود هم ذوو قامة متوسطة ، ثم يأخذ عدد الجنود في التدني شيئاً فشيئاً كلما كان يجري الابتعاد عن المعدل الوسطي باتجاه القامات الكبيرة جداً أو القصيرة جداً . وفي كل من الاتجاهين لم يكن تناقص عدد الناس متساوياً عند الانتقال من

قائمة إلى أخرى : لقد كان في البدء سريعاً ، ثم بطيئاً ، خاضعاً بذلك خضوعاً دقيقاً للقانون الرياضي الذي درسه لا بلاس وغوس . كما أننا نحصل على نتائج من نفس القبيل عندما نقيس مرات عدة الشيء ذاته : نحن غالباً ما نرتكب الأخطاء العرضية في القياس ، وهي أخطاء في الزيادة لا في النقصان ، والأخطاء الهزيلة أكثر تردداً من الأخطاء المهمة . أدنى التقريب بين هذين الضربين من الملاحظات ، إلى معطيات ميتافيزيكية لم يستطع كيتلي أن يدفع اغراءاتها عن نفسه وهي : تحاول الطبيعة عند كل ولادة ، أن تحقق « الرجل المتوسط » نفسه وإن تأثير « الأسباب العرضية » هو ما يؤدي إلى نشوء تنوع الافراد الذي هم على قيد الحياة . ان « الانتظامات الاحصائية » الملحوظة في الصفات الفيزيولوجية والاخلاقية ، مع إعتبار تنوع الافراد واختلافاتهم ، هي انتظامات تقارن بالقوانين المتحكمة بجاذبية الكواكب . « لقد أقامت الحكمة الالهية بقوانين متشابهة ، التوازن في كل شيء ، في العالم الاخلاقي كما في العالم الفكري أيضاً » . ذلك هو ما ورد في مؤلفه « في النظام الاجتماعي والقوانين المتحكمة فيه »^(١) (١٨٤٨) ، بمعرض كلامه عن « المهندس المعماري الاكبر للكون » .

لسوف يستخدم غلتون ملاحظة كيتلي بدون ارتباك أزاء هذه التأويلات .

منذ عام ١٨٦٩ ، اقترح غلتون في « عبقرية الوراثة »^(٢) أن تقاس درجة عبقرية الفرد بنسبة (تردد) الاشخاص الذين ، من بين السكان ، يستطيعون أن يتجاوزوه . وطبق هو نفسه هذا المبدأ في ١٨٨٥ ، وبشكل بقي مذكور وبصورة ثابتة مستخدماً في علم نفس الفروقات « تعيير » - (étalonnage) - (الروائر) . وبمناسبة معرض دولي للصحة أقيم في لندن عام ١٨٨٤ ، فتح

1 - Du système social et des lois qui le régissent .

2 - Hereditary Genius .

غلطون للملا « مختبر قياس انامي » حيث كان الزوار يقاسون فيه بسبعة عشر طريقة مختلفة ، ثم كان يستطيع كل واحد فيما بعد ، بمراجعته وحدة نسب مئوية - Percentiles - نشرها غلطون في العالم العالي ، أن يعرف النسبة المئوية من السكان التي تجاوزته في كل من القياسات التي كان قد أجراها .

ومختبر القياس الانامي (Anthropométrie) في عام ١٨٨٤ ، جدير بالاهتمام أيضاً بسبب المناهج التي استخدمت فيه لاجراء القياسات نفسها . كان غلطون قد نشر كتابه « مباحث في ملكة الانسان وتطورها » (١٨٨٣) ^(١) وقد لاحظ فيه بشكل جلي انتقال المناهج المعقدة السائدة في مختبر علم النفس التجريبي - المخصصة لتحليل ظاهرة ذهنية بشكل يكون دقيقاً إلى أقصى حد ممكن ، وغير مستخدمة سوى بضعة اشخاص - إلى المناهج المبسطة التي هي أكثر سرعة وتتيح بشكل عملي قياس عدد كبير من الافراد ، وذلك هو ما جعل ممكناً الدراسة الاحصائية للفروق الفردية . ومن ثمة فان هذه الاختبارات سوف يطلق عليها بعد بضع سنين تالية اسم « الروانز » العقلية ، وسوف نتكلم عنها فيما بعد .

أخضع زوار مختبر القياس الانامي في عام ١٨٤٨ ، لقاء ثلاثة بنسات ، لاسئلة من الروانز الحقيقية . كان يقاس فيها السرعة التي بها يقدر هؤلاء الزوار على الضرب ، وكان يجري عليهم تعيينات للحدة السمعية والحدة البصرية ، وكانت تعين صفات رؤياهم للالوان ، الخ وسوف يلاحظ أن المعنى هنا هو « سيرورات عليا » سوف تشكل مواضيع درس مفصلة في مختبر فوندت ، في تلك الحقبة نفسها .

على هذا ، فان هذه الاعمال مدت قياس الفروقات الفردية من الميدان الفيزيائي إلى الميدان الذهني ووفرت وسيلة بسيطة لتأويل هذه القياسات .

1 - Inquiries into human faculty and its development .

لكن الموضوع الجوهرى لها ، كان التثبيت تجريبياً لوراثية التفوقات أو الدونيات التى يكون قد جرى بذاك تحقيقها . وهذا هو أيضاً منهج احصائي تخيله غلتون ، منهج سيتيح العمل به قيام هذا التثبيت ، ولسوف يكون هذا هو الاكتشاف الاخصب لغلتون . ويتعلق هذا الامر بقياس درجة التشارك ، الترابط ، بين متغيرات كثيرة ، منها مثلاً : الاشخاص ذوو القامة الكبيرة ينجبون اولاداً طوالاً أكثر ، على الغالب ، من أولئك الاشخاص ذوي القامة القصيرة .

بيد أن الأمر هنا ليس سوى ميل عام . وبفضل غلتون صار يعرف أن يقاس منذ ١٨٨٨ برقم نسبي ، « معامل ارتباط ، قوة » الميول ، من هذا النوع . (كان غلتون قد حدد المشكلة وأعطاهما حلاً أول ، قياس النكوص ، وذلك في عام ١٨٨٨) .

في المؤلف الذى نشره عام ١٨٨٩ ، وهو كتاب « الأرث الطبيعى » (١) ، ناقش غلتون المفهوم المذكور بشكل أقرب للكمال ، وطبقه على دراسة الوراثة . بيد أن هذا المفهوم كان يطبق على مسائل عديدة أخرى . فقد وضعت في اغلب الاحيان ، كل ظاهرة بيولوجية ، اقتصادية ، اجتماعية ، بل وفيزيائية أيضاً تحت تأثير التزامن لعدد كبير من الظواهر الاخرى . وهكذا بحيث ان الارتباط الذى يمكن ان يلاحظ بين اي اثنين من هذه الظواهر لا يكون ارتباطاً كاملاً ، نظراً لما يداخله من تأثير « مشوش » ناتج عن الظواهر الاخرى . من هنا كانت المنفعة العامة لإمكانية التعبير برقم ، هو « معامل الارتباط » ، عن درجة الارتباط الملاحظ .

ان تداخل التأثيرات المتعددة هذا ، هو تداخل بديهي في مجال علم النفس بشكل خاص ، ولسوف لا ندهش اذ نرى أن هذه المناهج الاحصائية تستخدم

في الميدان النفسي في وقت مبكر جداً .

بعد ذلك ستتلقى المناهج هذه ، التي بلغ بها بيرسون (K . Pearson) ، تلميذ غلتون ، درجة عالية من الكمال ، ازدهاراً جديداً عند مجال البحث في علم النفس عن هذه « الاسباب المشتركة » للتغير ، التي تمس في الوقت ذاته عدة صفات والسيتي تكلم عنها غلتون في سنة ١٨٨٨ . وقد استخدم هذا البحث منهجاً عنها سوف يدعى ، بعد بضعة سنوات ، بـ « التحليل العاملي » .

أمام سلسلة من المتغيرات ذات الترابط المتبادل فيما بينها ، هناك سلسلة قياسات من نوع الاناسية ، مثلاً نقدر ان نقترح البحث عن الاسباب العامة التي يتعظم وجودها ، بشكل غير مباشر ، بالترابطات [المتبادلة] بين صفات تحت الملاحظة . إن أعمالاً في هذا الاتجاه قد بدأت ، بشكل يلفت النظر ، في معرض نقد قام به غلتون عام ١٨٨٨ ، لمناهج تحديد هوية المجرمين التي نادى بها الفرنسي برتيلون (Bertillon) . كان هذا المنهج يرتكز على استخدام سلسلة طويلة نوعاً ما من اخذ القياسات . أما غلتون فانه تخيل طريقة مختلفة تمام الاختلاف ، وتقوم على اخذ بصمات الاصابع . إلا أن بعزم تلاميذه ، وفي قسم منه بايحاء من ك . بيرسون ، استمروا في دراسة « مسألة برتيلون » ، كما كانت تدعى طريقة هذا الفرنسي . على هذا ففي عام ١٨٩٦ ، اقترح ادجيورث أن نضع بدل اخذ القياسات ذات الترابط المتبادل ، متغيرات مستقلة تشتق منها . ثم أن ماكدونيل قد حل عام ١٩٠٢ هذه المشكلة حلاً فعلياً . لكن ادجيورث وماكدونيل لم يقترحا سوى الوصف الاكمل للاشخاص المقاسين .

إلا أن عالماً نفسانياً انكليزياً ، سيرمان (١٨٦٣ - ١٩٤٥) ، هو الذي انهى منهجاً آخر لتحليل 'معاملان' (coefficients) الارتباط ، وهو منهج رأى فيه صاحبه وسيلة لبلوغ الاسباب المشتركة للتغير التي كان غلتون قد تكلم عنها . وقد نشر في سنة ١٩٠٤ المقال الاول عن منهجه هذا ، كما نشر في ١٩٢٦

كتابيه « قدرات الانسان »^(١) حيث بذل قصارى جهوده لكي يبين أن المناهج الاخرى التي كانت حق ذاك الحين مستخدمة في علم النفس تصطدم بمعايير واعترافات كأداء لا يقع فيها منهجه الخاص .

ومم « التحليل العاملي » - مع سيرمان وعلماء نفس انكليز آخرين مثل السير سيريل بورت (C . Burt) والسيد غودفري تومسون (١٨٨١ - ١٩٥٥) بدايات اتجاه جديد في العمل داخل مجال علم النفس ، بل وربما نستطيع القول انها بدايات « علم نفس احصائي » . وبالطبع ، فان التحليل العاملي لم يبق شيمة خاصة بانكلترا إذ انه حظي ، في الولايات المتحدة مثلاً ، بتطور بالغ من حيث عدد الباحثين فيه أمثال : ل . ل . ثورستون (١٨٨٧ - ١٩٥٥) الذي نشر في سنة ١٩٣١ مقالاً وفي سنة ١٩٣٥ مؤلفاً عن منهجه الخاص (« متجهات العقل »)^(٢) . وعلماء النفس الانكليز المستخدمون للتحليل العاملي ينزعون غالباً إلى وصف السلوك الانساني بواسطة « عوامل » (فئات وصفية أكثر مما هي أسباب) ذات أهمية متفاوتة : هناك عامل عام ، يمس « مجمل السلوكيات التي تقع تحت الملاحظة » ، ثم هناك عدد طفيف من العوامل أقل أهمية ويمس كل منها مجموعة سلوكيات (لفظية ، رقمية ، فضائية [حيزية] ، الخ ...) ، ثم هناك تقسيمات صفري لهذه العوامل ذاتها إلى عوامل تصبح أكثر فأكثر عدداً وتتنحصر أكثر فأكثر أيضاً . ذلك هو المفهوم « الترابي » [التسلسلي] للذكاء ، الذي صاغه بورت منذ عام ١٩١٧ وما انفك يضبطه ويدققه منذئذ (عوامل العقل)^(٣) ، (١٩٤١) . وإلى هذا المفهوم يبدو انه يمكن إعادة المفهومين اللذين كانا في البدء مخالفين لذلك ، واللذين هما : مفهوم سيرمان (وكان سيرمان

1 -

The abilities of man .

٢ - متجه أو سهم - The Vectory of The miud , Vecteur

3 -

Factors of The mind .

متعلقاً في الأصل بنموذج واحد من السبب المشترك هو العامل العام) ، ومفهوم نورستون (الذي لم يستعمل في البدء ، في عام ١٩٣٨ ، سوى سلسلة من العوامل المستقلة لم يكن أي واحد منها عاماً) .

على هذا نرى أن علم النفس الاحصائي ، الناجم عن دراسة الفروقات الفردية ، قد أنجب منهجاً جديداً في علم النفس العام . في البحث عن كيفية تشارك النجاحات (أو الفشل) في مهام مختلفة لدى نفس الافراد ، نستطيع أن نحصل على الطريقة التي تترابط وتتشارك بها وذلك بالنسبة للمجموعة معتبرة من حيث مجملها ، السيورورات التي وضعتها هذه المهام قيد العمل والتشغيل .

وبدون الرجوع إلى مجلوبات (١٩٢٥ ، ١٩٣٥) احصائي انكليزي آخر ، هو ر. أ. فيشير ، سبق الالمح اليه بمعرض التطور الجديد لعلم النفس التجريبي ، فاننا نستطيع الآن تتبع نمو النظريات والتطبيقات العملية المتعلقة بالفروقات الفردية .

وقد انشئ في فرنسا مختبر لعلم النفس الفارقي ، داخل المدرسة التطبيقية للدراسات العليا ، في عام ١٩٦٤ .

٢ - النظريات المتعلقة بالفروقات الفردية

لا يناع أحد في أن الفروقات الملحوظ وجودها بين الافراد ، تعود في قسم منها لاسباب تكوينية ذات علاقة بالوراثة ، وفي قسم آخر لتأثير البيئة . وبالتالي فان أحداً لا ينكر انها قابلة للتفسير الجزئي ، والجزئي فقط ، بفعل هذه البيئة . ولكن أوار الخلافات يحتمل تماماً حول الاهمية النسبية لكل من هذين العاملين ، وحول اواليّة اثرهما وبالتالي حول حدود الامكانيات المحولة في البيئة .

توضعت أواليّة الوراثة بالعدد الوافر جداً من الابحاث التجريبية التي يشكل مجموعها حقل علم الوراثة (Génétique) . بدأت هذه الابحاث بالدراسات التي قام بها العالم النباتي الفرنسي نودن ، والتي نُشرت سنة ١٨٦٣ وسنة ١٨٦٥ ، ثم بالدراسات التي حققها منديل بمفرده في مورافيا ، والتي نشرت سنة ١٨٦٥ . ومع ذلك فان علم الوراثة لم يتطور إلا منذ سنة ١٩٠٠ . ثم جاءت دراسات مورغن (T . H . Morgan) ومعاونيه في نيويورك سنة ١٩١٠ فدفعت به إلى الامام ، إذ انها تناولت حشرة ذات خصائص تسهل التجارب وهي ذبابة الخل أو الدروزوفيل .

وقد تبين ان كل شيء يجري كما لو أن كلا من الصفات المميزة لفرد ما (والتي تفرقه بالتالي عن الآخرين) ترتبط بعامل مستقل هو « المورث » (Gène) . وتنتقل هذه المورثات من جيل إلى جيل وفقاً لقواعد حددت بفضل الاحصاءات الرياضية ، (والمؤلف المشهور بهذا الصدد هو ما نشره فيشير (Ficher) سنة ١٩٣٠ بعنوان : « القاعدة الوراثة للانتقاء الطبيعي »^(١)) . وتحدد المورثات أيضاً التكوين^(٢) الوراثي أو « النموذج الوراثي » (genotype) للفرد ، ذاك النموذج المستقر والمستقل إلى حد كبير عن ما يصيب البيئة الخارجية من تقلبات . ولكن البيئة تؤثر ، مع ذلك ، في التطور والنمو ، بحيث لا ينشأ الفردان ذوا الارث الواحد متماثلين تماماً . واحدى الوسائل المستعملة لمعرفة تأثير البيئة هو بالضبط اجراء المقارنة بين هؤلاء الافراد حيثما يوجدون ، وهم ما يسمون التوائم بحق . هذا علماً ، بأن ابحاثاً من هذا النوع قد بدأت قبل انتشار النظريات الارثية التي اتينا على ذكرها .

سبق لنا ان تتبعنا الجهود التي بذلها غالتون لاقامة الترابط بين الصفات

1- The genetical basis of natural selection

٢ - ار : الجبة - Constitution - 2

المقاسة لدى اجيال متتابة (١٨٧٧) . فلو امكن رد التشابه الملحوظ وجوده بين الآباء والابناء ، كلياً إلى تأثير الوراثة ، لأفادت أهمية الترابط معرفة أهمية هذا التأثير ، إلا انه ليس ضرورياً أن تبدو نفس الامكانيات الوراثة عند الاب الابن ؛ كما ان البيئة ، من جهة أخرى ، تحدث بعض تأثيراتها على الاب وعلى الابن على حد سواء ، وهكذا يصعب بعدها التفسير . لكن عرض القضية يكون أفضل عندما تدرس اوجه التشابه بين توأمين حقيقيين (أي مولودين من ذات البويضة المخصبة بذات الحيوان المنوي) . في هذه الحالة بالفعل ، يكون الثقل الوراثي واحداً ، تماماً ، لدى التوأمين . فاذا أظهرت الفحوصات الفيزيائية والفكرية الدقيقة تشابهاً بينها أكبر مما هو موجود بين الاخوة والاخوات (أو بصورة أدق ، بين التوائم « الاشقاء » ، أي الناتجين عن بويضات ومنويات مختلفة) ، فان هذا التشابه الاكثر يمكن أن يسجل لحساب وحدة العوامل الوراثة . ثم انه يجب ، عند التأويل ، أن يحسب حساب كيفية تنشئة التوأمين : متصلين او منفردين . واذن يبقى التأويل دقيقاً . كما ان جميع العدد الكافي من الملاحظات يبقى صعباً جداً لان هذا العدد يجب ان يكون بالفعل مرتفعاً نسبياً ، لكي يمكن تطبيق الاساليب الاحصائية التي تتيح وحدها تقدير اوجه التشابه والترابط بشكل دقيق . وتعود إلى غلتون أولاً فكرة هذه الطريقة ، عندما نشر سنة ١٨٧٥ مقالا حول « تاريخ التوائم كميّار للتمييز بين فعل الطبيعة وفعل التنشئة ^(١) » . ويكشف غلتون في هذا المقال النقاب عن نتائج استقصاء قام به وذلك بتوجيهه اسئلة إلى توائم . ولم يتبع غلتون في عمله الاسلوب الاحصائي المنظم بل قدمه بشكل اقاصيص واعاد طبع هذا المقال في كتب أخرى في سنة ١٨٧٦ وفي سنة ١٨٨٣ دونما تغيير كبير فيه . واستعمل هذا المنهج على التوائم كثيراً من

1 - The history of twins, as a criterion of The relative powers of nature and nurture .

بعده . وفي الولايات المتحدة كانت الاعمال الاولى في هذا الحقل هي أعمال ثورندايك (١٩٠٥) ، ويبدو أنهم الابحاث هي التي قدم بها نيومان وفريمان وهولزينغر (Holzinger) الذين نشروا في سنة ١٩٣٧ ، معلومات كاملة ودقيقة عن ٥٠ زوجاً من التوائم المتشابهين [المتوحدين] (identiques) ، وعن ١٥٠ زوجاً من التوائم الاشقاء ، وعن ١٩ زوجاً من التوائم المتشابهين المربين كلا على حدة . ولم تقتصر الجهود على تقييش المعلومات الكثيرة ، بل تناولت أيضاً توضيح المناهج الاحصائية المستعملة لتفسيرها . ويبدو ان الدراسات التي قام بها س . بورت في انكلترا (١٩٥٥) و ر . ب . كتيل (Catell) في الولايات المتحدة (١٩٥٥) تعتبر نموذجية بهذا الشأن .

لا يمكننا هنا إدراج تفاصيل هذه الاعمال . فتأثير البيئة يختلف باختلاف الصفات المنظور اليها . ولكن هذه الدراسات تؤدي بوجه عام إلى القول بتأثير الوراثة تأثيراً مسيطراً وساحقاً .

إلا أنه أصبح معروفاً أن القوى الوراثة الكامنة في الفرد لا يمكن أن تظهر إلا إذا أُنحت لها بيئتها ، باكراً ، فرص وامكانيات الممارسة خلال فترة النمو ، قبل سن السابعة أو الثامنة ، حسب قول بعض الكتاب .

نرى بأي شيء يمكن لسائر هذه المفاهيم أو النظريات أن توجه تطبيقات علم النفس إلى ناحية اعطاء وزن للفروقات الموجودة بين الافراد ، وهذا حسبما يمكن التثبت منها بواسطة الروايز . وفي الواقع ، ففي اطار هذه المفاهيم ، كان « التكوين الارثي النموذجي » (Constitution génotypique) يحدد منذ الولادة مجمل طاقات الفرد الممكنة ، تلك التي يزوي بعضها بفعل عدم الاستعمال خلال السنوات الاولى للحياة . وهكذا تستقر باكراً جداً ، وإلى حد بعيد ،

الفروقات في الاستعدادات^(١) (أي في الامكانيات على التعلم) . وبعدها يصبح من الممكن اعطاء تنبؤات حول امكانيات النجاح القادمة في المستقبل في هذا أو ذاك من النشاطات على هذا أنجزت أمثال هذه التنبؤات وذلك في عديد من البلدان ، على أساس الروايز ، وسيتناول المقطع التالي بصورة موجزة عامة تطورات هذه التطبيقات . وتجدر الإشارة إلى أن هذه الأخيرة بدأت قبل أن تنمو النظريات الارثية المنديلية ، وفي الوقت الحاضر أيضاً ، يلتمز الكثير من الممارسين في علم النفس ، بالحقل التجريبي الخالص ولا يشعرون بالحاجة إلى اسناد التقنيات التي يستعملونها إلى نظرية واضحة . ويشكل العلم الوراثي المنديلي الأساس النظري الأكثر تلاؤماً لممارسة علم النفس التفارقي : وهذا واقع اجمع عليه أنصار هذه الممارسة (فقد افتتحت « موسوعة علم النفس التطبيقي » المنشورة من سنة ١٩٤٩ إلى ١٩٥٩ تحت إشراف هـ . بيرون ، بعرض لنظريات منديل) وأخصامها أيضاً . وذلك لأن هناك علماء بيولوجيين يعارضون العلم الوراثي المنديلي ، كما ان هناك علماء نفس ينكرون كل أهمية لدرس الفروقات الفردية درساً منظماً . ولا مجال للدهشة ، حسبما سبق ورأينا ، من وجود تعاطفات وشفقة بين هؤلاء . والحقيقة أن الاتجاهين (التأييد والعداء) قد ترعرعا بأن واحد ، ابتداء من سنة ١٩٣٠ تقريباً ، وفي نفس البلد ، ألا وهو الاتحاد السوفياتي .

في سنة ١٩٣١ عقد في موسكو المؤتمر الدولي السابع لعلم النفس التقني وكانت فرصة المندوبين الغربيين للاعجاب ببعض المنجزات المهمة في مجال علم النفس التفارقي ، مثل مصلحة الانتقاء المهني للسكك الحديدية ، حيث المختبر المركزي الذي يحتوي على مولجين مؤلفين من ثمانين من الاطباء وعلماء النفس التقنيين والاختصاصيين والمستخدمين ، هذا دون أن يعد معها ٢٠ مختبراً ملحقاً ، وعربية

مختبر نقال ، تكلف بتوزيع المتدربين وبانتقاء الميكانيكيين . لكن هؤلاء العلماء الغربيين تعجبوا من سماعتهم المناداة بضرورة الإعتماد ، خدمة للعلم ، على المبادئ النظرية للمادية الديالكتيكية التي تجلب ، حسب قول هارشتين ، مثلاً إذا طبقت على أي مجال من مجالات المعرفة ، لا للوضوح المنظم فقط فيما يتعلق بالمبادئ الأساسية ، ولا المعالجة الصحيحة للموضوع المدروس فقط ، بل تبعث أيضاً الثورة في نظرتنا المستقبلية إلى العلم ، وتساعدنا أيضاً على الانتقال من المعرفة إلى العمل ، ومن الدرس إلى التغيير . وعلى أساس هذه المبادئ وجهت الانتقادات الجادة للروايز التي قد « كُتبت وفقاً لتلاميذ من بيئة بورجوازية » (ليفيتوف) ، والتي ترمي إلى اعتبارها ثابتة خالدة ثبات [خصائص] فردية ، هي وليدة تأثير الوسط وبالتالي اذن ، قابلة للتغيير (ماندريكا) . ظلت هذه الانتقادات تنمو من سنة ١٨٣١ إلى سنة ١٨٣٦ حيث صدر على الروايز حكم رسمي . فقد صدر عن اللجنة المركزية للحزب ، مرسوم يقضي بإلغاء معالجة عام الطفل (وهو علم كان يرمي . ابتداء من سنة ١٩٣٠ خصوصاً ، إلى التخصص في دراسة تطور الاطفال والشبان من وجهة سيكولوجية) . وكان علماء الطفل يعتمدون ، على نطاق واسع ، الروايز في فحوصاتهم ، ويعتبرون الفروقات الملحوظة (إما بفعل الوراثة وإما بفعل البيئة عموماً) قليلة القابلية للتغيير ، فيضاعفون المدارس المتلازمة خصيصاً مع هذا أو ذاك من المستويات العقلية ، أو مع الطبائع الصعبة ، الخ ... « ان علم الاطفال البورجوازي ، العلم المناقض للعلم ، يهدف إلى حماية الطبقة الحاكمة واذن ... فهو يعمل على إثبات وجود عبقریات خاصة ، وحقوق خاصة تبرر وجود طبقات مستغلة » ، هذا ما أعلنته اللجنة . وابتداء من ذلك اليوم ، تقدمت التربية خطوات على موضوع الفروقات الفردية ، « وعاد إلى علم التربية وإلى المربين اعتبارهم الكامل » . وقالت ابحاث مثل ابحاث ماكارنكو (١٩٨٨ - ١٩٨٣) شهرة عظيمة .

لقد سبق لنا أن تكلمنا في الفصل الأول ، عن أعمال بافلوف ومدرسته ، الأعمال التي استمرت بدون انقطاع منذ سنة ١٩٠٣ . واثبتت هذه الدراسات ، أن الانعكاس المشروط هو نمط من أثر البيئة على السلوك ، وترمي التجارب المعاشة من قبل الفرد إلى إيجاد روابط كثيرة ودينامية بين بعض الاشارات وبعض ردود الفعل . ولو أمكن لبعض هذه التجارب أن تتكرر بشكل كاف ، إذن لكان للروابط أن تتوضح ، وأن تستقر بل وان تصبح وراثية فيما بعد . وتعزى الفوارق الفردية في هذا الاطار ، إلى مختلف التجارب التي يعيشها الفرد أو حتى أجداده . بيد أن بافلوف اثبت أن القوانين التي تتحكم بتكوين الانعكاسات المشروطة تختلف باختلاف الافراد الذين يمكن ، من وجهة النظر هذه ، أن ينقسموا إلى أربعة نماذج وفقاً للتقسيم الذي اعتمده ابو قراط : القوي - المتزن - الجامد (البلقمي) ؛ القوي - المتزن - المرن (الدموي) ؛ القوي - اللامتزن (غضوب) الضعيف (السوداوي) .

في سنة ١٩٥٤ ، بقى ليونتييف في مؤتمر علم النفس في مونتريال ، يؤكد أن « الصفات النفسية وخصائص الرجال الدقيقة ليست فطرية ، بل تتكون دائماً خلال نمو وتربية الانسان » ، وان معرفة القوانين التي تتحكم بتكوين هذه الصفات تتيح توجيه هذه السيورورات . ولكن ب . تيلوف ، خلال المؤتمر ذاته ، اعترف بأهمية الخصائص الفردية التي هي « خصائص مستقرة ويمكن ان تتيح التمييز بين رجل وآخر » ، وان الصفات النوعية [النمطية] ليست ثابتة : « فهي قابلة ، بكل تأكيد ، للتغير تحت تأثير ظروف حياة ونشاط الفرد » . لكن تيلوف يضيف : يستحيل علينا ، ونحن لا نملك معطيات تجريبية كافية ، ان نقول الآن ضمن اية شروط يمكن أن نصل إلى هذه النتيجة وما سيكون مقدار أهميتها .

في سنة ١٩٥٦ ، نشرت المجلة السوفياتية « مسائل في علم النفس » دون ما توقيع ، مقالاً بعنوان : « المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي

ومشا كل علم النفس ، . فبالإضافة إلى التأكيد على بعض المواقف القديمة ، يوجد في المقال إشارات إلى اهتمام جديد بدرس الفروقات الفردية وتطبيقاتها على الاتجاهات المهنية . إلا أنه لا يبدو في الوقت الحاضر ، إن هذه الفروقات تستعمل بغية التنبؤ بنجاح هذا الفرد أو ذاك .

على العكس من هذا ، وفي بلدان كثيرة أخرى ، نرى أن عدداً كبيراً من التطبيقات العملية ، منذ خمسين سنة ، قد نجم عن الفرضيات المتعلقة بالدور المسيطر الذي تلعبه الوراثة في ظهور الفروقات الفردية الثابتة . ومعظم الأعمال التي سنشير إليها أدناه مستمدة من هذا المنظور أو من هذه الزاوية . مع ذلك كله ، ففي هذا المجال ذاته أيضاً ، نقع على نوع من « التقهقر » يصيب النظريات العامة . ويهتم الكثير من المطبقين ، ونقولها تكراراً ، بالفعالية العملية للمناهج التي يستعملونها أكثر من اهتمامهم بالنظريات التي يزعمون أنها تفسر أو تشجب هذه المناهج .

٣ - نمو التطبيقات العملية

يعود الفضل في منشأ التطبيقات العملية الواسعة النطاق لمنهج الروائز ، إلى عالم نفساني أميركي اسمه جيمس مكين كاتيل (١٨٦٠ - ١٩٤٤) . كان مساعداً لـ غوندت ، في ليبزغ سنة ١٨٨٣ ، واهتم بالفروقات الفردية التي تجلت من خلال التجارب السيكولوجية العامة التي تحققت في المختبرات . وفي سنة ١٨٨٨ ، اتصل ، عندما كان معيداً في جامعة كامبريدج الانكليزية ، بغلتون . وكان فضل كاتيل ، يومئذ ، أن وضع موضع التطبيق العملي ، وبشكل موسع ما سبق له ان تعلمه من فوندت ومن غلتون . وفي سنة ١٨٩٠ ، استعمل لأول مرة كلمة (تست Test) ، أي رائز ، وأجرى بشأنه عدة دراسات ، وخصوصاً في مجال الفروقات الفردية . لكن الشهرة الواسعة التي اكتسبها في الولايات المتحدة ربما تهيأت له من براعته كإداري وكمنظم ثم من حيويته كمطبق أكثر

من كونه صاحب انجازات علمية: فقد اسس مختبرات، ومجلات علمية، ومشروعاً تجارياً « هو السيكولوجيكال كوربوريشن » الذي وضع في تصرف الجمهور الانجازات التي كان قد سبق وحققها علماء النفس والتي امكنهم تقديمها في حقل التربية وفي الحقل الصناعي .

مع ذلك فان النجاح العملي لم يتبها له مباشرة . فمن سنة ١٨٩٠ حتى السنوات الاولى من هذا القرن كانت الروايز التي طبقها كاثيل وتلاميذه من نفس نمط الروايز التي سبق لغالتون أن اعتمدها ، وكلها تجري ضمن الحدود التي تتيحها المعدات المختبرية وفقاً لتصاميم فونددت: حيث كانت السيوروات الاولى (احساس ، إدراك ، مدة رد الفعل) تحتل مركزاً مرموقاً .

كما تبين أن تنبوءات النجاح المدرسي أو الجامعي المرتكز على هذه الاختبارات قلما كانت قابلة للتحقيق . وقد افاحت تقنيات الترابط التي اعتمدها غالتون ، امكانية تقدير العلاقة بين النتائج المحققة في الروايز وبين النتائج المدرسية والجامعية تقديراً مضبوطاً . وثبتت جاستروف سنة ١٨٩٣ كما ثبت ويلر سنة ١٩٠١ وغيرهما ، من أن هذه العلاقات ضعيفة ، أو معدومة ، وهكذا مني منهج الروايز بالفشل .

ربما أمكن التذكر (الفصل الاول) انه في هذا الحين بالضبط ، قام « بيني » وهنري ، في الطرف الاخر من الاطلسي ، يشبتان في مقال لهما عن « السيكولوجيا الفردية » (١٨٩٦) أن خير وسيلة للتمييز بين الافراد هو ما يجري من زاوية « ملكاتهم العليا » (الذاكرة ، طبيعة الصور الذهنية ، الخ ...) وينتقدان بشدة المناهج الفروقاتية [التفارقية] المستمدة من المختبرات . واعتمد المقال ، في الولايات المتحدة ، من قبل شارب سنة ١٨٩٩ ، الذي اقترح تطبيق ما جاء فيه ، في المجال المهني (في حين أن المؤلفين الفرنسيين لم يريا امكانية تطبيقه إلا « للعالم النفسي والطبيب » ، ولعالم الانتروبولوجيا وحتى للقاضي » . ولكن بيني لم

يتوقف عند هذا الحد . ففي تشرين الأول من عام ١٩٠٤ اجتمعت لجنة وزارية « كلفت بدرس الاجراءات التي يجب اتخاذها لتأمين فوائد التعليم للاولاد اللاسويين » . وقررت هذه اللجنة ان لا يُسحب أي طفل مشتبّه بتخلّفه العقلي من المدارس العادية لوضعه في مدرسة خصوصية قبل أن يخضع لفحص تربوي وطبي يشهد أن حالته العقلية تجعله غير أهل للانتفاع من التعليم المعطى في المدارس العادية اكتفاءً وسطيّ الدرجة . وشدد بيني بقوة على ضرورة الحاجة إلى طريقة موضوعية في الفحص وقدم بالمشاركة مع سيمون « السلم » المشهور باسمه هو ، والمكون من عدد كبير من الاختبارات القصيرة المتنوعة ، وغير البعيدة عن الاوضاع المألوفة والموجهة كلها إلى « السيرورات العليا » . وظهرت الصياغات الثلاث له سنة ١٩٠٥ و ١٩٠٨ و ١٩١١ في مجلة « السنة السيكولوجية » . وسرعان ما ترجم « السلم » في الولايات المتحدة من قبل كودارد ، ثم هيلي (١٩١٠ ، ١٩١١) ، ثم كيفه « ترمان » (١٩١٦ ، ١٩٣٧) . وبدأت التنبؤات المرتكزة على « العمر العقلي » عند الرد (وهو العمر الوسط للاولاد السويين الذين أحرزوا نفس النجاح في السلم) أفضل من التنبؤات التي تحققت حتى ذلك الحين بموجب الروائز « الاولى » المعتمدة عند غالتون وكاتيل . وفي هذا إشارة إلى بعث جديد لمنهج الروائز ، في الولايات المتحدة أولاً ثم في الكثير من البلدان فيما بعد .

ويستحيل الآن تتبع مراحل بالتفصيل ، إلا أنه يبدو أن الاتجاه نحو البحث عن الفروقات الفردية من زاوية الصفات المعقدة ، المتراكبة ، التي سبق لنا أن تتبعنا مظاهرها الأولى ، يوجد في مناسبات أخرى : كتمييز فرد عن طريق « جانبه السيكولوجي » (بروفيل نفساني) ، أي عن طريق رسم بياني يمثل بشكل متماسك تألفي ، قدراته العليا ومواطن ضعفه التي تتجلى في مجالات متعددة (روسوليمو ^(١) ١٩٠٩ ، وكلاباريد ^(٢) ١٩١٦) ؛ وكاستعمال

1 - Rossolimo

2 - Claparède

اختبارات « الشخصية » أو « المزاج » التي تضاف إلى اختبارات الذكاء أو الاستعدادات ، خصوصاً بعد سنة ١٩٣٠ ؛ أو كوصف النتائج التي حصل عليها المرشح بمفردات من « العوامل » المعزولة جانباً عن طريق « التحليل العاملي » الذي سبقت الإشارة إليه (مصلحة الاستخدام في الولايات المتحدة ، ١٩٤٥) ، الخ ...

وفي فرنسا قام العالم النفساني أ . تولوز^(١) ، (١٨٦٥ - ١٩٤٧) بدور مهم في تطوير السيكولوجيا التفارقية (وفي غيرها من المجالات إذ أنه أسس مع سيموني^(٢) (Simonnet) جمعية علم الجنس ؛ ومع « لوجيي » جمعية علم انماط الحياة (Biotypologie) ؛ كما أنه شرع في تأسيس جمعية علم الشيخوخة) . وعندما أراد دراسة العبقرية التي كان يتساءل عن مدى علاقتها بالجنون ، اخضع لسلسلة من الفحوصات : أ . زولا ، هنري بونكاري ، الخ ... ولما كانت المناهج المستعملة لا ترضيه دقتها فقد عمل على تحسينها ونشر في سنة ١٩٠٤ ، مع ن . فاشيد^(٣) و ه . بيرون ، كتاب « تقنية السيكولوجيا التجريبية » ، التقنية التي استعملت فيما بعد كأول أساس منهجي لتطبيقات السيكولوجيا التقنية في عمليات الانتقاء والتوجيه المهني .

ففي الانتقاء ينحصر الأمر في اختيار من له الحظ الاوفر في النجاح من المرشحين المتقدمين لأشغال المركز . وكان فحص العمال بواسطة الروائز ، قد تحقق في فرنسا ، ابتداء من سنة ١٩١٠ على يد « لاهي »^(٣) (١٨٧١ - ١٩٤٣) ، حد أعوان تولوز . وكانت د . ونبرغ^(٤) ، (١٨٩٧ - ١٩٤٦) ، مساعدة الفيزيولوجي ه . لوجيي قد قامت مع ر . يونارديل بأعمال مهمة في هذا الشأن . وفي التوجيه المدرسي والمهني كانت الغاية تسهيل تكيف الاولاد والشبان مع الحياة المدرسية ومع عالم العمل . وأول من قام بتطبيق مناهج السيكولوجيا

1 - Toulouse

2 - Vaschide

3 - Y . M . Lahy

4 - Weinberg

الفارقة على التوجيه المهني في سويسرا ، هو كلاباريد (١٨٧٣ - ١٩٤٠) الذي أسس سنة ١٩١٢ مع بوفي ^(١) ، معهد جان جاك روسو ، والذي كتب ، خصوصاً ، كتاباً بعنوان « كيف تشخص قدرات التلاميذ » (١٩٢٣) والذي كان له تأثير عالمي واسع . وتلمذ عليه فرنسي اسمه ج . فونتيني ^(٢) (١٨٧٩ - ١٩٤٤) ساهم في تأسيس « التوجيه المهني » الفرنسي ، الذي اتسع امتداده بفضل اهتمام ه . و م . بيرون ، وهما مساعدان آخران لـ تولوز : ففي سنة ١٩٦٥ ، بلغ عدد المستشارين العاملين في حوالي ٣٠٠ مركز أو ملحق مركز ، ما يقارب من ١٣٠٠ شخصاً . واستبدل تدريجياً الفحص الاسامي الجاري في آخر الدراسة بعمل متواصل يستمر طيلة فترة الدراسة بغية إيجاد مزيد من الملاءمة مع الوسط المدرسي والمهني .

1 - Bovet .

2 - Fontegne .

علم النفس المرضي والمنهج العيادي

٤

- ١ - نظرية ريبو
- ٢ - نظرية جانبيه ودوما
- ٣ - الايحاء ونزعة التنويم
- ٤ - التحليل النفسي
- ٥ - المنهج العيادي وعلم النفس العيادي

إذا كان من الممكن استخلاص بعض الاتجاهات المشتركة من بين مختلف الأبحاث التي سبق أن أوردناها ، فيبدو أن واحداً من بين الاتجاهات الأساسية هو ذلك الذي يؤدي بالعالم النفسي إلى مدرسة الأحداث [الوقائع] . ان سلوك المرضى الذهنيين [العقلين] ، الذي هو فئة خاصة من الأحداث ، يشكل القاعدة التي عليها يبنى علم النفس المرضي (الباثولوجي) .

والرجل الذي ساهم بشكل قاطع في تكوين شخصية علم النفس المرضي - الذي هو في أساسه علم نفس فرنسي - لم يكن طبيباً بل فيلسوفاً ، انه ت . ريبو .

١ - ت . ريبو (١٨٣٩ - ١٩١٦)

كان ، والحق يقال ، فيلسوفاً قاسياً بحق الفلسفة التي تعلمها في مدرسة دار المعلمين تلك التي دخلها سنة ١٨٦٢ . وفي سنة ١٨٧٠ نشر كتاب « علم النفس الانكليزي المعاصر » الذي كان لمقدمته دوي كبير . ففيه أكد على أن علم النفس يجب أن ينفصل عن الميتافيزيكا ، هذا بعد تركه لهذه الأخيرة درس « الأسباب الأولى » والاكتفاء بالملاحظة العلمية للوقائع التي هي غير « الملاحظات الداخلية » . فعلم النفس يمكنه بالواقع أن يشمل « كل ظاهرات الفكر عند جميع الحيوانات وان يتفحص لا الشكل الراشد من هذه الظاهرات فقط ، بل والمراحل المتتالية

لنموها ايضاً ، وبذلك فان حقله يتسع ، بشكل شاسع والى ما لا تحوم له تقريباً ، للابحاث والتحقيقات . ثم أن استقلال علم النفس عن ما بعد الطبيعة [الميتافيزيكا] لا يعني بالضرورة ذوبانه بالفيزيولوجيا . وهكذا فبعد أن صور ريبو وحدد مجال علم نفس الحيوان ومجال علم النفس الوراثي ^(١) ، أخذ يحوس ويكتشف بنفسه ، عبر مؤلفاته اللاحقة ، مجال علم النفس المرضي .

أما الوقائع اللازمة له فقد أخذ يلتقطها من بين الملاحظات الهائلة المشتتة « في كتب الطب ، وفي موسوعات الامراض العقلية ، وفي الكتابات التي وضعها مختلف علماء النفس » . كما شاهد في الاختلال المرضي بديلاً حقيقياً يحل محل المنهج التجريبي . فهذا التفكير يستقر في الواقع وفقاً لنظام مستقر ثابت ، بموجبه يهلك الجديد قبل القديم ، والمعقد قبل البسيط . إذن ، يحقق لنا « التحلل » ^(٢) المختلف الدرجات ، تحليلاً للسيروورات على اختلاف مستوياتها ، وهي السيروورات التي لا يمكننا الاشتباه بوجودها طالما كانت مندمجة متكاملة في السيرالسوي في سبيل تأدية عملها . وقام ريبو يطبق هذه الطريقة في مؤلفات جلبت له شهرة طبقت الآفاق ، وهي : « أمراض الذاكرة » (١٨٨١) ، « أمراض الارادة » (١٨٨٣) ، « أمراض الشخصية » (١٨٨٥) . ثم أصبح استاذاً في السوربون سنة ١٨٨٥ ثم ، في سنة ١٨٨٨ ، في الكولاج دي فرانس وبالتحديد على منبر السيكلولوجيا التجريبية والمقارنة وهو منبر أوجد من أجله بفضل رينان . وفي سنة ١٨٩٦ ، أقر في كتابه « علم نفس الاحساسات » ، موافقاً فرويد - بل وربما متقدماً عليه - أولوية الحياة الوجدانية وتفوقها ، حيث تلعب فيها الميول ، التي تكون غير واعية في قسم منها ، دوراً أساسياً يمكن ان يظهر بعدة اشكال : اما على أثر توقف النمو الوجداني (« نزعة الطفولية السيكلولوجية » التي نادى

1 - Génétique

2 - Dissolution

بها ريبو تبشر بـ «التخلف الوجداني» الذي نادى به فرويد (، واما بـ «تحلل» المكتسبات المستجدة . ثم عاود في سنة ١٩١٤ ، البحث على « الحياة اللاواعية او المحركات » .

ونظراً لأسفه على عدم استطاعته ملاحظة المرضى ملاحظة مباشرة ، بحكم إنه لم يكن طبيباً ، فقد تتطلب من تلاميذه ثقافة مزدوجة ، فلسفة وطبية ، مقيماً بذلك عرفاً ، غالباً ما استمر عليه في فرنسا ، اساتذة علم النفس في السوربون وفي الكوليج دي فرانس (ب. جانني ، ج. دوما ، ه. فالون ، ش. بلونديل ، بوايي ، د. لاغاش .

وهكذا فبتشييده صرح منهج علم النفس المرضي ، استعمل ريبو ككل المجددين ، مفاهيم ، ومدد ميولاً كانت قد سبقته بظهورها أو عاصرتة .

ومنذ القرن التاسع عشر أظهر أطباء نفسانيون باريسيون (مورو دي تور ، بايارجير ^(١) اهتماماً بعلم النفس وخصوصاً بعلم النفس الذي نادى به مان دي بيران . وهكذا يمكن الكلام بشأنهم عن « مدرسة طبية سيكولوجية » . من جهة اخرى ، أخذت تظهر الحاجة إلى استعمال المنهج التجريبي في مجال علم النفس ، من مختلف الجهات : ففي كتابه « علم النفس الالماني المعاصر » لسنة ١٨٧٩ (الذي كان عنوانه الصغير : مدرسة تجريبية) ، اشار ريبو ، فيما اشار ، الى أبحاث فكنر وفوندت . كما حقق المنهج التجريبي انتصارات باهرة ، في مجال آخر قريب ، وهو الفيزيولوجيا . وكان أن صرح كلود برنار - الذي دشن سنة ١٨٥٤ منبر الفيزيولوجيا التجريبية في السوربون - سنة ١٨٦٩ ، أن الظواهر الفكرية قابلة لأن تفسر من قبل العالم الفيزيولوجي .

وكان قد بقي أن يُرى في الملاحظة المرضية [الباثولوجية] البديل المعادل ، للمنهج التجريبي . فبهذا الصدد سبق لـ « لالميان » ^(٢) أن عرض سنة ١٨١٨ ،

1 - Moreau de Tours . Baillarger

2 -. Lallemand

في اطروحاته، اقترحات باتولوجية تهدف الى توضيح عدة قضايا فيزيولوجية. وبعده ، جاء كلود برنار يؤكد بسلطان أقوى التشابه الاساسي بين الباتولوجي والسوي في كتابه « مدخل الى دراسة الطب التجريبي » (١٨٦٥) ؛ ويلسح أيضاً على فائدة المنهج المرضي في مجال الفيزيولوجيا . لكن ريبو اخذ عن عالم الاعصاب ج . ه . جاكسون (١٨٣٥ - ١٩١١) فكرته الاساسية عن « التحلل » . وقام ج . ديلي يوضح (١٩٥١ ، ١٩٥٣) القربى القائمة بين فكرة ريبو وفكرة جاكسون ، وكلا الرجلين كانا يكتنان اعجاباً بالغاً بالعقيدة التطورية التي نادى بها الفيلسوف الانكليزي ه . سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣) . فبالنسبة الى هذا الاخير تعتبر الافكار المتولدة لدى فرد ، موضوع عدة مرات في نفس الموقف ، على انها وراثية (فكرة سنلقاها ، كما رأينا ، عند بحث الانعكاسات الشرطية التي نادى بها بافلوف) ، وذلك هو أصل الغريزة . وتتكون الذاكرة والذكاء (المعرفة) ^(١) فيما بعد ، انطلاقاً من الغريزة : تتوالد السيورورات المعقدة انطلاقاً من السيورورات الاكثر بساطة وبصورة اندراجية مترتبة . اخذ جاكسون يطبق هذه العقيدة على الامراض العقلية التي يحقق مسيرها تفهقراً يتبع ، باتجاه عكسي ، نفس المراحل التي في التطور . ويكون الجهاز العصبي مؤلفاً من مراكز تشكل تراتباً (اندراجاً) : أي تكون فيها المراكز الدنيا هي الاكثر اوتوماتيكية ، وكل مركز يسيطر على المراكز التي هي دونه ، يوضع بذات الوقت في موضع التبعية بالنسبة الى المراكز التي فوقه . أما المراكز العليا فهي الاكثر تعقيداً ، وهي التي تتيح التكيفات الشديدة التمايز والمعقدة . أما المراكز الاعلى ، والتي هي في أعلى السلسلة المترتبة ، فهي أيضاً أشد المراكز ضعفاً وعطياً . فالمرض أول ما يصيبها ، آخذاً معه القدرات السلوكية المتعددة ، ومحرراً القدرات الاوتوماتيكية المضبوطة والمراقبة قبل ذلك . وقد استعمل ريبو هذه الافكار التي ظهرت بين سنة ١٨٦٨ و ١٨٨٤ بصورة جلية عقب سنة ١٨٨١ . كما ظلت

هذه الافكار تحتفظ بمكانتها ، مع بعض التحفظات حول معنى « التراتب »^(١) وحول التماثل^(٢) (التطابق) المضبوط لمراحل التطور والنكوص .
عاون «تين» ريبو في انطلاقة ، حيث ادرك الاول بدوره اهمية السيكولوجيا المرضية ، كما ادركها رينان . ونشر هذا الاخير سنة ١٨٩٠ مؤلفاً كتبه سنة ١٨٤٨ - ١٨٤٩ عن « مستقبل العلم » ، ناهض فيه السيكولوجيا القديمة التي كانت علماً تجريدياً عن الانسان الراشد والمتحضر ؛ واقترح درس الانسان اثناء تطوره ، ودراسة الولد ، والبدائي ، والمريض . وهكذا نرى أن أعمال ريبو جاءت تدخل في صميم هذا البرنامج .

٢ - جانیه (١٨٥٩ - ١٩٤٧)

و ج . دوما (١٨٦٦ - ١٩٤٦)

كانت جانیه ودوما من تلاميذ ريبو . وكانا معاً من خريجي دار المعلمين ، ثم لفترة ما ، زميلين في كلية الطب . أسسا معاً ، سنة ١٩٠٤ ، « جريدة علم النفس السوي والمرضي » التي اشرف عليها ابتداء من سنة ١٩٣٨ ش . بلونديل - الذي مات في السنة التالية - ثم ب . غيوم ١٨٧٨ - ١٩٦٢ وي . ميرسون . وقد وقعا معاً المذكرة التي خصصتها مجلة « الزمان » بتاريخ ١٠ كانون الاول ١٩١٦ لريبو الذي كان ماتمه سيجري في اليوم التالي . كان دوما تلميذاً لجانیه عندما صار هذا الاخير ينوب عن ريبو في «الكوليج دي فرانس» قبل ان يحل محله سنة ١٩٠١ . ويبدو ان ما قدمه جانیه كان اكثر اصالة - بنظر معلمها المشترك - من الشيء الذي قدمه دوما .

سرعان ما توجه بيير جانیه نحو الفلسفة . لكن خلال ذلك حرضه عمه الفيلسوف بول جانیه على اكمال ثقافته العلمية أيضاً ، إذ أن هذا الاخير كان يأخذ

1 - Hiérarchie : تسلسل تراتبي ، تدرج الى اعلى فاعلى

2 - Symétrie

على نفسه هذا النقص . وهكذا درس الفيزيولوجيا مع داستر ، ثم الطب . وفي سنة ١٨٨٢ ذهب يعلم الفلسفة في كليات الريف بعد أن اجيز في الفلسفة ، وبعد ان درس سنتين من الطب . وظل بذات الوقت يعمل في مستشفى الهافر ، حيث أسس قاعة مخصصة للمرضى العصبيين ، اسمها « قاعة القديس شاركو » ، على اسم عالم الاعصاب الشهير في مستشفى سالبتريير الذي سنأتي على ذكره فيما بعد . وإثر أبحاث جسورة ، ومزعجة شيئاً ما بالنسبة إلى اتجاهه في المستقبل ، على « التنويم عن بعد » (كان التنويم المغناطيسي ^(١) ، كما سنرى ، موضة العصر يومئذ) ، نشر سنة ١٨٨٩ أطروحته عن « التلقائية النفسانية » ^(٢) . وبعد ذلك عاد إلى باريس ، حيث بدأ يبذل نشاطاً مكثفاً خصه للتعليم ، ولدراسة الطب التي رجع إليها ، ولتختبر علم النفس المرضي الذي صار تحت إدارته ابتداء من سنة ١٨٩٠ في عيادة سالبتريير . وكان يعطي دروساً في السوربون عن علم النفس التجريبي ، وينوب عن ريبو في الكلية . من بين تلاميذه هـ . بيرون الذي أصبح أمين سره في مختبره في السالبيتريير . وفي سنة ١٩٠١ تخلى ريبو عن مقعده في الكلية لجانيه . واحتفظ هذا به حتى سنة ١٩٣٥ ، معطياً فيها تعليمًا كان دائماً مشوقاً ومهماً سواء من جهة مزاياه في العرض التي اجتذبت كل من سمعه ، أو من جهة عمق افكاره الاصلية التي ضمنها العديد من مؤلفاته ولا سيما : « حالة المهسترين العقلية » ^(٣) (١٨٩٢) ، « العصابات والافكار الثابتة » ^(٤) (١٨٩٨) ، « الوسواس والوهن النفسي » ^(٥) (١٩٠٣) ، « العصابات » ^(٦)

1 - Hypnotisme .

2 - L'automatisme psychologique التلقائية النفسانية

3 - L'Etat mental des hystériques .

4 - Névroses et idées fixes.

5 - Les obsessions et la psychasthénie .

6 - Les névroses .

(١٩٠٩) «الاستتجابات النفسانية» ^(١) (١٩١٩) ، من «الخوف إلى الوجد» ^(٢)
(١٩٢٦) ، «تطور الذاكرة ومفهوم الزمن» ^(٣) (١٩٢٨) ، «الذكاء قبل
الكلام» ^(٤) (١٩٣٦) .

نجد لدى جانبيه بعضاً من افكار ريبو ، اما «استقاء» مباشراً ، واما من
جاء التأثيرات المشتركة (ابحاث مدرسة «الطب النفساني» في القرن التاسع
عشر و«مين دي بيران» خصوصاً) وأولها بالطبع ، اهتمامه بالمنهج المرضي . وقد
شدد ، هو أيضاً ، على اصالة علم النفس واستقلاله عن الفلسفة وعن الفيزيولوجيا .
أما من جهة المنهج ، فقد ركز أيضاً على ضرورة الاكتفاء بمراقبة الاعمال
الخارجية والتصرفات (Conduites) . إلا أن تصرفات جانبيه هذه ، هي
ملاحظات من مستوى غير مستوى ملاحظات العالم السلوكي ، الذي يعد المرات
التي يتجه فيها الجرد الموضوع في متاهة نحو العمر الايمن . فالفتات (المقولات)
التي يرمي اليها جانبيه أوسع بكثير ، إذ تتضمن مجاميع من أفعال ذات معنى ،
و ذات هدف ، وتوحد فيما بينها قيمتها الوظيفية المشتركة . ف«تصرفات
الظفر» مثلاً ، تتوافق مع «هدر القوى الاحتياطية» ، وتتضمن أيضاً العمل
الجنسي ، كما تتضمن كذلك الالعب أو الدعابات . واذن ، يندمج تاريخ نمو
الفكر البشري بتاريخ التصرفات . فالذاكرة مثلاً ، تظهر عندما يتوجب على
الحارس الموضوع خارج المعسكر أن يكون قادراً على تحذير بني جنسه ،
ليس في اللحظة ذاتها التي يظهر فيها الخطر ، بل عقب ذلك بقليل ، عندما سيقفل
عائداً معهم . لا كما يحدث عند الحيوانات حيث لا تظهر الذاكرة إلا عند اللقاء المباشر مع

1 — Les médications psychologiques .

2 — De l'angoisse à l'extase .

3 - L'évolution de la mémoire et de la notion du temps.

4 — L'intelligence avant le Langage .

القطيع .

وهكذا يكون العمل في أساس الفكر . وغير ذلك ، يُعتبر الفعل اعتناق ميل ، أو اعتناق « استعداد للقيام بسلسلة من الحركات المتتابعة في نظام ما » . اذن ، تتراتب التصرفات المختلفة (وبالتالي الميول المختلفة ، أو الوظائف النفسانية المختلفة) . بعض هذه التصرفات يتطلب كمية كبرى من « القوة النفسانية » ودرجة كبرى من « التوتر » . تلك هي التركيبات ^(١) الجديدة التي تتناول أحداثاً متعددة ، كالتركيبات التي يتطلبها العمل الفعال على الواقع ، « وظيفة الحادث الواقعي » ^(٢) . هناك تركيبات أخرى تتطلب جهداً أقل وتوتراً أدنى : تلك هي النشاطات المنزهة ، والتفكير التجريدي ، ثم الوظائف المتناولة صوراً ذهنية ، وردود الفعل الانفعالية والحركات العضلية غير النافعة . لاحظ اي . ميرسون سنة (١٩٤٧) أن مفهوم التوتر هذا يتلاقى مع الفرضيات التي قال بها مودسلي ، وسبنسر (الذي اشرنا إلى تأثيره على ريبو) و « هوفدن » وبرغسون . يمكن أيضاً ملاحظة وجود مفهوم جد قريب من مفهوم التوتر في نظريات علماء النفس الاحصائيين ، هذه النظريات التي تشير جميعها إلى وجود عامل عام يؤل على أنه طاقة ذهنية (سيرمان) . ومما يمكن من أمر ، فإن جانبه يدل على انه - في العصابات (لاسيما في « الوهن النفسي ») - تكون الوظائف التي تتطلب درجة عالية من الجهد هي الاولى التي يُبلغ اليها وتزول ، في حين أن الحالات الدنيا ، الاكثر تلقائية (اوتوماتية) تستمر ، بل احياناً تتفاقم . وهذه الملاحظة توصلنا إلى جاكسون عبر ريبو . إلا أن جانبه يعلن ارتكازه على ابحاث فرنسية سابقة لما قام به جاكسون (جوفروا سنة ١٨٢٨) . ويبدو الدور الذي يعزوه إلى ريبو ، عدا « الدفعة المدهشة التي اعطاها

1 - Synthèses .

2 - Fonction du réel :

للسيكولوجيا العلمية ، ، واضعاً تماماً في هذه الجملة من المحاضرة التي خصصها له ، في الكوليج دي فرانس ، يوم الاحتفال بوفاة سلفه بالذات : « لقد اعاد ريبو الاعتبار الى التراث الفرنسي ، وقد نجح في احياء وفي ادخال منهج دراسة - متواضع بلا شك ، ولكنه ضروري - إلى حقل التعليم . »

شدد ج . دوما ، عندما مثل ، سنة ١٩٣٩ ، اكاديمية الطب و اكاديمية العلوم الاخلاقية والسياسية في احياء الذكرى المئوية لولادة ريبو ، على الاشارة إلى تأثير ريبو المباشر والدائم على فكره فقال : « انني اتشرف بالكلام امامكم كتلميذ قديم لتيودول ريبو . لقد عملت ، منذ زمن مدرسة دار المعلمين ، تحت ادارته . تتبعت محاضراته في السوربون وفي الكوليج دي فرانس ، طيلة الفترة التي علم فيها هناك . ولم أكتب شيئاً ، دون ان استعمل مناهج العمل التي اخذتها عنه . وقد قدمت له جميع كتبي اهداء ... وطيلة ثلاثين سنة كانت نصائحه ومحبه تشكّل العون لي في كل ما أعمل . لقد تتلمذت عليه طيلة سنوات وما زلت من مريديه الان والى الابد . »

عقب دخول دوما مدرسة دار المعلمين سنة ١٨٨٦ ، التقى بريبو سنة ١٨٨٧ في مكتب « المجلة الفلسفية » التي انشأها هذا الاخير سنة ١٨٧٦ . وبعد أن استمع الى نصيحته باكمال ثقافته الفلسفية بالثقافة الطبية ، تسجل دوما في كلية الطب وتخرج استاذاً في الفلسفة سنة ١٧٨٩ ، ودكتوراً في الطب سنة ١٨٩٦ بموجب تقديم اطروحة حول « الحالات الفكرية في السوداوية »^(١) . واصبح ، منذ سنة ١٨٩٧ ، رئيساً لمختبر علم النفس التجريبي في عيادة الامراض العقلية في كلية الطب ، وظل محتفظاً بهذا اللقب طيلة اربعين سنة باعتزاز بالغ . واذ نال شهادة الدكتوراه في الاداب سنة ١٩٠٠ ، على اساس اطروحته المتعلقة بـ « الترح والفرح »^(٢) ، فقد خلف ب . جانیه كمكلف بمحاضرات عن علم النفس

1 - Les états intellectuels dans la mélancolie .

2 - La tristesse et la joie .

التجريبي في كلية الاداب . كان له تأثير عميق وشخصي في فرنسا وفي الخارج خصوصاً في اميركا اللاتينية ، وذلك لكونه رجل ثقافة وفكر ، واستاذاً لامعاً تنال دروسه نجاحاً بالغا .

خصص القسم الاكثر اصالة من عمله لدرس الانفعالات (مثل كتاب «الابتسام والتعبير عن الانفعالات»^(١) عام ١٩٠٦ ، الخ ، ..) ، تلك الانفعالات التي استعمل لاجلها جميع موارد الفيزيولوجيا و ثرواتها ؛ وجمع العديد من الملاحظات حول كيفية عمل المراكز العصبية ، والجهاز الودي (السمبتاوي) ، والغدد الصماء ، وجرت مقارنتها بالملاحظات السيكلولوجية والسيكلولوجيا المرضية . وكان كل عمله مرتكزاً على مسلمة الهوية (الوحدة والتشابه التام) ، الأساسية للأليات السوية والمرضية ، وهي المسلمة الموروثة عن كلود برنار والمرتكزة على منهج ريبو ، وذلك بعد أن اكملها واغناها . واطاحت له الحرب فرصة تطبيق هذا المنهج على قضايا اخرى هي : « الاضطرابات العقلية والاضطرابات العصبية الناتجة عن الحرب »^(٢) (١٩١٩) . ثم ، زيادة على ذلك ، حقق دوما انجازاً هاماً وذلك بتوجيهه نشر كتاب « موسوعة علم النفس »^(٣) (١٩٢٣) ، أعقبها بعد سنة ١٩٣٠ بـ « موسوعة جديدة في علم النفس » . ربما كان لهاتين الموسوعتين الفضل في تعريف طلاب علم النفس باسم دوما . لقد ساعد في تأليفهما اعظم علماء النفس الفرنسيين على اختلاف ميولهم ونزعاتهم . فهل حققت هذه النشرة تماماً المقاصد الاولى التي هدف اليها مديرها ؟ يبدو ان ذلك لم يتحقق . إذ يقال ان دوما قد اراد لكتابه « الموسوعة » - هذا ان يعبر عن عقيدة ، هي عقيدة مدرسة علم النفس الفرنسية التي تعتبر بنظره عقيدة ريبو . وقد اهديت

1 - Le Sourire et l'expression des émotions .

2 - Troubles mentaux et troubles nerveux de la guerre .

3 - Traité de psychologie .

اليه الموسوعة بهذا البيت الشعري اليوناني المرفوع الى زوس : « خرجنا نحن منك » . والواقع ان كلا من معاونيه حرر فصلاً ارتآ ، بنفسه بحيث يمكن القول ان العمل يتميز بقناه اكثر مما يتميز بانسجامه . وسواء اثار هذا العمل المتعة ام الرثاء ، فان مدرسة سيكولوجية فرنسية « ذات عقيدة » بقيت - وما تزال - غير موجودة بعد .

٣ - الأيحاء ونزعة التنويم المغناطيسي

مدرسة السالبتريير

كان ريبو ينصح تلاميذه ان يدرسوا الطب ، وأن يروا بأعينهم مرضى . باتباع هذه النصيحة ، دخل العديدون ضمن « حلقة تأثير » عالم الامراض العصبية الشهير ج . م . شاركو ١٨٢٥ - ١٨٩٣ .

لكونه رئيس مصلحة في مستشفى السالبتريير عام ١٨٦٢ فقد كان يعطي هناك ابتداء من سنة ١٨٦٦ ، دروساً يتناول بعضها امراض الجهاز العصبي . ولقد اخذ على عاتقه سنة ١٨٧٠ ، المهسترين « غير المجانين » ؛ ثم اصبح استاذ التشريح المرضي في كلية الطب في باريس سنة ١٨٧٢ . ثم في سنة ١٨٧٨ شرع في ابجائه عن التنويم المغناطيسي ، حتى حصل في سنة ١٨٨٢ على منبر عيادي للامراض العصبية انشيء خصيصاً من اجله في السالبتريير ، وسرعان ما اكسبه هذا شهرة عالمية .

بالرغم من ان تاريخ مدرسة السالبتريير بهم مباشرة الطب اكثر مما بهم علم النفس ، الا اننا لا نستطيع اغفال ذكرها هنا . اولاً لأنها كانت دون شك مزاراً لعلماء نفس امثال ب . جانيه ، وأ . بينيه ، أو . س . فرويد . بل وربما لان الابحاث التي جرت فيها حول الايحاء وحول التنويم (الاصطناعي) عند المهسترين تتصل بتيار من الاهتمامات ذات الاثار المهمة في مجال « علم النفس الدينامي » .

يدرس علم النفس الديناميكي وفقاً لما يمكن ان يعرف به بإيجاز ، القوى

« الحوافذ » ، و « الميول » ، و « النزوات »^(١) التي يبدو انها توجه ، لهذا ولهناك ، منطلق نشاط الفرد ابتداء من نشاطه الحركي البسيط حتى استخدامه لذكائه . يتجلى وجود امثال هذه القوى واضحا تماما لدى هذه الفئة من المرضى الذين لا تظهر فيهم اية اصابة عضوية ظاهرة للملأ ، والذين يدل جهازهم الذهني ، في بعض الاحيان على الاقل وضمن اطار محدود ، على قدرة على العمل ؛ والذين في تصرفهم دلائل تشير الى عدم كمال التكيف . هذه الاضطرابات او الامراض ، عصابات او ذهانات^(٢) ، معروفة منذ زمن بعيد ؛ وكانت طبيعتها توحى بهذه الفكرة ، فكرة ان الادوية التي تُزرع في الجسد ليست مما يصح لها ، مادام الجسد ظاهر السلامة والمعافاة . ذلك في حين تتوجب معالجة مباشرة للسيروورات الكامنة المسؤولة عن الاختلال الملحوظ . فلماذا لا يتم احلال ارادة المعالج^(٣) المدرب محل ارادة المريض المتداعية ؟ هناك سبيل الى ذلك . ففي بعض الاحوال ، يمكن اصطناعيا ، وضع بعض الاشخاص في حالة قريبة من النوم ، تسمى بالتنويم (هيبنوز) ؛ يكون فيها هؤلاء الاشخاص مطيعين تماما لما يوحى اليهم ، فيجيبون عن كل سؤال يوجه اليهم ، وينفذون كل امر يعطى لهم ، اما مباشرة واما بعد اليقظة . ويسمى مجموع المناهج التي يمكن ان تبعث ايجائيا هذا الوضع ، بالتنويم المغناطيسي (علم التنويم ، هيبنوتيسم) .

يعود الفضل في نشر هذا النوع من المعالجة ، في باريس ، ابتداء من سنة ١٧٧٨ ، الى ف . آ . مسمير (١٧٣٤ - ١٨١٥) .

اعاد بيير جانيه ، في كتابه « الاستطبابات السيكولوجية » المنشور سنة ١٩١٩ الى الازهان ، تاريخ الايجاء والتنويم . وفيه نرى انها كانت قد برزت ،

1 - pulsions

2 - Psychose : نعان . Névrose : عصاب

3 - Thérapeute

حوالي سنة ١٨٢٠ ، الفكرة القائلة بان التحولات التي يثيرها التنويم ليست بذات علاقة مع السائل المغناطيسي الحيواني السري ؛ وانها يمكن ان تفسر نفسانياً بـ « التأثير المعنوي » الذي يمتلكه المعالج ، وهو التأثير الذي يبعث في نفس المريض « تغييراً معنوياً » ^(١) يكفي للتسبب بالشفاء . وعقب سنة ١٨٦٥ ترك التنويم المغناطيسي للدجالين . وبعد عشرين سنة ، قام شاركو بجذب الانظار ويسلط انتباه رجال العلم على هذا الموضوع ، بعد ان كانوا حتى تاريخه ميالين الى عزو الظواهر المحدث عنها الى مجرد التظاهر المتصنع .

لقد قام شاركو ، وهو طبيب امراض عصبية ، يتحرى عن حالة التنويم من خلال الاشارات والدلائل العضوية الواضحة وغير القابلة للشبهة : تحول في حالة العضلات والحركات الانعكاسية والحساسيات المختلفة . وادى الدرس الى تمييز ثلاث حالات عصبية امكن التعرف عليها بواسطة تنويم المهسترين وهي : حالة السبات المرضي (Léthargie) ، وحال التخشب أو التيبس (Catalepsie) ، ثم حالة المشي اثناء النوم أو الروبصه (Somnambulisme) . وفاز المؤلف بفضل وصفه هذه الحالات الثلاث ، فوزاً عظيماً أمام اكاديمية العلوم وذلك سنة ١٨٨٢ في ١٣ فبراير (شباط) . كما نالت عيادة السالبيترير بعد ذلك شهرة فائقة ، وعرف التنويم المغناطيسي انتشاراً واسعاً . في هذه الاثناء ، كان استاذ من كلية الطب في نانسي ، وهو . هـ . برنيم (١٨٣٧ - ١٩١٩) يدرس بدوره أيضاً التنويم ، فلم يجد فيه غير المفاعيل التي يحدثها الانحاء ، غير مفاعيل « التأثير الناجم عن فكرة موحاة ومقبولة من قبل الدماغ » . وفي هذا بعث لفكرة تركز كثيراً على « التغييرات المعنوية » . وحوالي سنة ١٨٩٠ قام برنيم ، الذي لم يكتشف في نانسي « الحالات الثلاث » المشهورة والتي صارت تقليدية في السالبيترير ، يؤكد بان هذه الحالات بالذات توحى للمرضى الذين ، بعد سماعهم

معنوي او ادبي او اخلاقي : Moral - 1

بها ، يتأثرون بها لا شعورياً ، فيتصرفون اثناء الفحوصات ، التصرف الذي توده هذه النظرية المقررة مسبقاً . « ان التنويم في السالبيترير ، هو اصطناعي ، مربى عليه » . وخرجت مدرسة السالبيترير مهزومة في هذا الصراع ، ثم زالت بزوال مؤسسها سنة ١٨٩٢ . لكن مدرسة نانسي لم تعمر بعدها هي أيضاً . فعقب سنة ١٩٠٠ بقليل ، نامت نظرية التنويم نوماً عميقاً . إلا ان هذا الصراع الحماسي ، ساهم كثيراً في القبول بأهمية « الاستطبابات النفسانية » ، كما يسميها جانبيه ، والتي تلاقي في ايامنا نجاحاً فائقاً .

٤ - التحليل النفسي

من المعروف منذ القدم ان اضطراباً في التصرف قد ينتج عن حادث ما من حوادث الحياة ، كان قد اثار انفعالاً بالغاً .

لقد اوضح شاركو في دروسه التي اعطاها سنة ١٨٨٤ - ١٨٨٥ اولى هذه الاضطرابات بمناسبة فحصه المرضى الذين كانوا مشلولين ، دون ان يكون ممكناً معرفة السبب العضوي لهذا الشلل (« الشلل الهستيرى ») . وبدا ان سبب الشلل هذا لم يكن الحادث بذاته ، بل ذكره في نفس المريض . وكان لهذه اللعة الطريفة البادية الوضوح اهمية لكونها فتحت آفاقاً امام المعالجة النفسانية . ذلك لان الطبيب الذي لا يستطيع عمل شيء بشأن الحادث الذي مضى ، يمكنه احداث تغيير في الذكرى الماثلة لدى المريض .

قام بيار جانبيه ، منذ بداية اعماله ، بتقديم الملاحظات التي تؤكد مفاهيم معلمه . ونشرت امثال هذه الملاحظات في ما نشر له من اعمال بين سنة ١٨٨٦ وسنة ١٨٩٢ (وبالاخص في كتاب « التلقائية النفسانية » عام ١٨٨٩) ، ثم

تضاعفت هذه الملاحظات خلال السنوات اللاحقة . اخذ يمارس الـ « تحليل
النفساني » للإضطرابات التي يلقاها لدى مرضاه ، هادفاً الى تحقيق ما
يسمى بـ «التطهير المعنوي» « Désinfection morale » وذلك بفضل «الانظمة
النفسانية » المكونة بفعل ذكرى الحادث وبفعل الاضطرابات (الشلل
وغيره) التي اقترنت بهذه الذكرى . وقد لاحظ ان المريض قد
لا يعي تماماً الذكرى المسببة للصدمة ^(١) ، ثم تكلم سنة ١٨٨٩ عن حالة
« تحت وعي تحصل عن طريق التفكير النفساني » . ونادى بان وضع المريض في
حالة روبصة مقصودة هي الحالة التي تمكنه من سرد وقائع الحادث المسبب
للاضطراب .

وهكذا سار في ابحاثه شوطاً بعيداً حتى لم يعد يرى فيها الا تأكيداً
لما نشره بعنوان «دراسات حول المستيريا» ^(٢) في فيينا سنة ١٨٩٥ ، كل من ج .
بروير و س . فرويد .

كان بين مرضى ج . بروير (١٨٤٢ - ١٩٢٥) ، وهو فيزيولوجي درس
التنفس وحس التوازن ، شابة عمرها ٢١ سنة ، اعتنى بها وعالجها من سنة ١٨٨٠
الى ١٨٨٢ هذا في حين كان فرويد يوشك ان ينهي دراساته الطبية . كانت هذه الفتاة
تشكو من اضطرابات هستيرية خطيرة : تيبس ، فقدان الاحساس ، سعال عصبي ،
عدم القدرة على الاكل والشرب ، اضطراب في الكلام ، الخ . وبعد ان لاحظ
بروير انها في حقبات «غيوباتها» كانت تردد بكثرة هائلة كلمات بدون معنى ،
نومها واخذ يعيد عليها هذه الكلمات . عندها اخذت تقص اقاصيص حزينة
عن فتاة صغيرة يجانب سرير والدها المريض .

1 - Traumatisant

2 - Studien über Hysterie .

سبق ان ظهرت اعراض المرض على الفتاة وهي بجانب والدها المريض تعتنى به ، اثرت هذه الاقاصيص في نفس الفتاة تأثيراً حسناً وأوقفت اضطراباتهما مؤقتاً ، ووصفتها هذه الفتاة نفسها «بالمعالجات الكلامية» ، بعملية «التعزيل» . وبذات الوقت زال عنها عارض استحالة الشرب نهائياً يوم اتيح لها ان تقص على برويير قصة حادثة صغيرة (كلب شخص تكرهه ، شرب امامها ، من كأس ماء) سببت لها قرفاً وغضباً لم تستطع التنفيس عنها في ذلك الحين . وهكذا نتعرف في هذه الحالة على التأثير النازف (والحدث للصدمة) لذكرى تجربة انفعالية سالفة . وانا برويير جوانب القضية ووجد منهجاً للعلاج (قصص يُدفع اليها تحت تأثير النوم) قبل شاركو وجانيه . لكن تطبيق التنويم بدا شاقاً ، فقد اصبحت الفتاة عاشقة لبرويير نفسه (رد فعل يعرف التحليل النفساني تفسيره اليوم بواسطة مفهوم التحول) ، وتضايق هذا كثيراً ، ففضل ترك هذا الحقل الدراسي بعد نشر « دراسات حول الهستيريا » .

تولى س . فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) الذي كان يعمل منذ عدة سنوات مع برويير ، المهمة هذه وكرس لها حياته ، واكتسب عن طريقها شهرة لم تتوفر ، على ما يبدو ، لاحد حتى الان في الاعمال النفسانية . فبعد نيته الدكتوراه ، تتلمذ فرويد ، في سنة ١٨٨٥ - ١٨٨٦ على يد شاركو ، الذي كان قد اشار في السنة التي سبقت الى اهمية الذكريات الناجمة عن الصدمات الفيزيائية^(٢) في انواع الشلل الهستيرى ، والذي اتيحت له الفرصة لكي يذكر امام فرويد أثر العوامل التناسلية في الاضطرابات الهستيرية . ويعترف فرويد ، حاله في ذلك كحال برويير ، بأنه تأثر كثيراً بشاركو عندما نشر سنة ١٨٩٥ تفسيراً لحالة الفتاة التي اتينا على ذكرها . الا انه ينكر ان يكون مديناً بشيء لجانيه ، الذي اخذ بدوره ، على الصعيد النفساني ، مفهوم الصدمة الذي نادى به شاركو

1- Traumatismes Physiques .

فطوره من سنة ١٨٨٦ إلى سنة ١٨٩٢ . في هذه الاثناء كان فرويد ، في فيينا ، يعالج مرضاه بالتنويم وبالايحاء . ثم عاد الى فرنسا في سنة ١٨٨٩ ، لكنه ذهب هذه المرة الى فانسي يزور خصم شاركو ، برنيم . وتعلم منه خصوصاً كون المرضى لا يفقدون تماماً ذكريات الاعمال التي قاموا بها اثناء النوم ، وانه بإمكانهم عقب اليقظة ، ان يقصوا قصتها ، بعد الاحاح الشديد عليهم . انتفع فرويد من هذه الملاحظة عندما عانى صعوبات في تطبيق التنويم لمعالجة مرضاه . وكذلك الحال في ذكرى الحدث الصادم ؛ فهذا الحدث ، لا ينسى تماماً وبالإمكان احياؤه في ذهن المريض بمضاعفة الاسئلة . انما نظراً لما يقترن به هذا المنهج من صعوبة فقد ترك وتحلى عنه ، لكنه لعب دوراً مهماً في تطوير نظريات التحليل النفسي . وذلك بلفته انتباه فرويد الى «المقاومة» التي يتوجب عليه قهرها عن طريق الاسئلة المتكررة ، للحصول على سرد الحادثة التي هي في اساس الاضطرابات . اذن ما هي العوائق التي تمنع المريض من الكلام؟ انطلاقاً من هذه المشكلة ، طور فرويد نظرياته الاولى في المؤلفات التالية : « تأويل الاحلام »^(١) ، (١٩٠٠) ، « علم النفس المرضي للحياة اليومية »^(٢) (١٩٠١) ، « ثلاث رسائل في نظرية الجنس »^(٣) (١٩٠٥) ، « النكات وعلاقتها باللاوعي »^(٤) (١٩٠٥) . ولقد عرضها هو بنفسه في خمس محاضرات ، ألقاها في ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٠٩ في الولايات المتحدة في جامعة كلارك ، حيث كان ضيف ج . ستانلي هل . وكان برفقته تلاميذه : يونغ من زوريخ ، فرنزي من بودابست ، وجونز من لندن . وكانت هذه أول شهادة اعتبار تمنح للنظرية الجديدة من قبل المحيط العلمي .

1 - Die Traumdeutung .

2 - Zur psychopathologie des Alltagslebens.

3 - Drei Abhandlungen zur Sexualtheorie .

4 - Der Witz und seine Beziehung zum Unbewussten .

كما بذل فرويد جهده لكي يعرض افكاره بشكل واضح مقبول؛ فتوفق أكثر بكثير مما فعل بعض شرّاحه فيما بعد .

أوضح فرويد عام ١٩٠٩ افكاره بإجراء المقارنة التالية : لنفترض انه - كما قال - اندس بين المستمعين الصاغين شخص ، استطاع بضحكاته ، وثرثرائه ، ان يمنعني من متابعة محاضرتي . فقد يقوم بعض الحضور الشديدي الساعد برميّه خارج القاعة ، ثم لكي يحولوا بينه وبين العودة ، قد يوقفون حراساً على الباب . وهكذا فقد تندس في ذهننا فكرة أو رغبة ، لا نستطيع لأسباب اخلاقية القبول بها . يحدث عند ذلك صراع ، فتكبت هذه الفكرة وهذه الرغبة ، وتطرّدا خارج نطاق افكارنا الواعية؛ انها تستمران في الوجود في اللاوعي ، لكن حاجزاً يمنعها من العودة الى نطاق الوعي . هذا الحاجز يشبه المقاومة التي يتذرع بها المريض بوجه الطبيب الذي ، بواسطة الاسئلة ، يحاول الوصول الى الحادث أي منطلق الاعراض المرضية . ثم استعاد فرويد هذا التشبيه . فالمستمع المطرود من القاعة يبقى موجوداً رغم الطرد؛ فهو يطرق الباب ، ويصرخ ويضع بحيث يزعج القاعة ومن فيها أكثر من الاول . عندها يمكن أن يتدخل رئيس الجامعة كحكم ؛ فيقابل المشاغب ، وقد يسمح له بالدخول إذا تعهد بعدم ازعاج الحضور . وكذلك حال الفكرة المكبوتة في اللاوعي ، فهي موجودة وتستمر في ازعاج سلوك المريض بإشارات أو مظهرات مقنّعة ، رمزية ، ليست سوى الاعراض التي يعاني منها . فعلى الطبيب ان يعرف ، كما فعل رئيس الجامعة ، كيف يذهب لمقابلة المشاغب خارج دائرة الوعي ليعود به الى الداخل . وحتى لو حصلت بعد ذلك اضطرابات علنية مكشوفة فانها تنتهي ، بفضل الطبيب ، نهاية حسنة : فقد يعترف المريض بانه كان على خطأ حين كبت الفكرة فيقبلها كما هي ، وقد يقضي عليها بشكل فعال ونهائي ، أو يحولها الى فكرة مقبولة ، يُساميها [يرفعها بعملية الإسماء] . ولكي يعثر الطبيب على الفكرة المكبوتة ، يتوجب عليه

قهر المقاومة الساهرة على باب الدائرة الواعية . وقد يلجأ ، للوصول الى ذلك ، الى تأويل ما يقوله المريض تاويلاً حاذقاً عندما يطلب اليه أن يعبر بحرية عن افكاره ؛ وقد يؤول له أحلامه ، وأعماله البسيطة « غير الارادية » التي يقوم بها في حياته اليومية وحتى نكاته . وبالواقع ، فان لا شيء من هذه الامور يكون اعتبارياً عرضياً . فالقضية تتعلق بتمظهرات مقنعة ، بافكار « بديلة » عن الافكار المكبوتة التي يتوجب استشفافها . وقد حلت هذه التقنيات الجديدة محل تنويم برويدر ، ومحل الاستجواب الملح الموروث عن برنيم . فهي توصل المحلل النفسي ، بانتظام مدهش ، الى تجارب انفعالية ذات علاقة بالجنس عند الاطفال ؛ تلك الجنسية إذن ، هي التي تشكل المنبع الرئيسي للاضطرابات اللاحقة .

غيب سنة ١٩٠٩ ، تطورت افكار فرويد . وكذلك افكار اتباعه أيضاً ، انما في اتجاهات مختلفة احياناً . من هنا كان منطلق تعدد النظريات ، وسلسلة انشقاقات يتطلب بلا شك سردها التاريخي من قبل المتخصص كثيراً من الوقت ومن الصفحات . فلنكتف بالتذكير بالتعارض الحاصل بين غرائز الحياة وغرائز الموت (١٩٢٠) ؛ وبالتمييز في مجال النفسية ، بين « هو » والـ « أنا » ، والـ « انا الاعلى » ، (١٩٢٣) . لقد ساعد النمو الهائل لتحليل النفسي في البلاد ذات اللغة الانكليزية ، ثم ظهوره في البلاد « اللاتينية » ، (في فرنسا ، حوالي سنة ١٩٢٦) على تعدد الاتجاهات التي يحاول البعض منها ، في الوقت الحاضر ، ان يصل الى لاوعي اعظم ، الى ماض اكثر ايغالاً في البعد ؛ في حين يشير البعض الاخر الى اهمية الصراعات القائمة حالياً مع المحيط ؛ واخيراً ، يركز بعض ثالث على الهوية [التوحد التشابه] الملحوظة في او اليات الدفاع لدى الأنا وهو يصارع العالم الداخلي والعالم الخارجي .

٥ - المنهج العيادي وعلم النفس العيادي

يعتبر ريبو وجانيه أن ملاحظة مفاعيل المرض وسيلة لمعرفة التنظيم السوي للنفسية وذلك بتحليل أكثر سيروراتها تعقيداً ، تحليلاً متصاعداً . وكذلك استعمل التحليل النفسي أيضاً ، وهو أسلوب علاجي ، كأساس لنظريات عن الشخصية السوية .

بالإضافة الى هذه المنجزات المتعلقة بهذا او ذاك من تناول الامور ، فقد ادخل علم النفس المرضي اتجاهاً عاماً الى مجال علم النفس السوي فأغناه بمعطيات تناولت الاشخاص الاسوياء كما تناولت المرضى ؛ وهي بدون نزاع ، مأخوذة عن موقف الطبيب الذي يتوجب عليه التزامه قرب سرير المريض . ذلك هو الاتجاه (١) ، الـ « منهج » العيادي (الاكلينيكي) (ل . و . ويتمر ، ١٨٩٦ ؛ د . لاغاش ، ١٩٤٥) .

هذا الأسلوب ثبت نفسه ، كما هو الحال دائماً بالمناهج أو المعتقدات الجديدة ، أولاً على أنه رد فعل ، احتجاج . فهو رد فعل ضد التجارب الخيرية ، كالتي أجراها فكنر أو فوندت ، وذلك لأنها بالضرورة مصطنعة ، ومجزأة ، وتغفل التعقيد الدينامي الناتج عن الأحداث العيانية ^(٢) . كما أنه أيضاً رد فعل على الإحصاء لدى غالتون وضد التأكيد المتسرع للملاحظات السطحية هذا في حين يتوجب على العكس من ذلك ، وهنا يمكن الاتجاه العيادي ، الاستمرار لمدة طويلة وبشكل معمق في ملاحظة الأفراد المعنيين وهم يصارعون مشاكلهم ، ثم معرفة ظروف حياتهم برمتها معرفة قامة ما أمكن ، بحيث يتيسر تأويل كل حادث في ضوء الوقائع الأخرى ، نظراً لأن جميعها تشكل كلاً دينامياً لا يمكن أن نبسطه بدون أن نبتّره . ذلك هو موقف الطبيب الممارس (Praticien) الذي

۱ - Attitude .

۲ - عیانی او محسوس . Concret

يتوجب عليه على صعيد عياني أن يعالج أو أن يرشد ، وهو دور تجب الإشارة الى خصوصيته العميقة ويناقضه عادة موقف رجل المختبر المنقطع عن عالم الواقع .

هكذا ، على أي حال ، قد يعرّض «طبيب عيادي» (Clinicien) متشبث وعدواني نوعاً ما - هذا إذا وجد - إذا شاء تقديم مبادئه ، وقد يستطيع التدليل عليها وتزيينها بالكثير من الخصائص المأخوذة عن علماء النفس الذين تكلمنا عنهم في هذا الفصل : فالصفات الجوهرية للمنهج العيادي مأخوذة عن علم النفس المرضي .

أن الحذر من المناهج الاحصائية نجده عند ريبو حيث يقول : « وهم هو الاعتقاد بأن استعمال الوسائل الرياضية يؤدي بنا الى يقين رياضي » كما نجده أيضاً عند جانبيه إذ قال : « ان الارقام هي التي عطّلت واضاعت منهج الروائز » . وبعد ان أبدى بينيه نفس الرأي بقوله : « لا توصل الاحصاءات إلا إلى الزهيد » كان أن تطور رأيه خلال بضع سنوات تطوراً مهماً بحيث يمكن تتبعه خطوة خطوة في مؤلفاته ابتداء من سنة ١٩٠٥ (...) ان القيمة الوسطية تمثل القيمة الاثبت أو القيمة المثالية » . وهذا ما قاله بلهجة جدية بـ كيتيلي الذي نقل عنه بينه بعض الافكار عن التوزيعات المتأثلة) .

واهتمام جانبيه بالدراسة المعمقة لـ « حالات » فردية يعطي ابحاثه حيوية بالغة . فقد آوى بعض المرضى في غرفة صغيرة ملاصقة لمكتبه في السالبيتريير ، وذلك تسهيلاً وتيسيراً للعمل ، ثم أخذ يراقبهم فيها طيلة سنوات . ووسع بينيه الطريقة التي أشملها نطاق الانسان السوي ثم وضع كتابه « الدراسة التجريبية للذكاء » (١٩٠٣) استناداً إلى تجارب مستديمة اجراها على ابنتيه ، ارماند وهنرييت ، اللتين احتلتا بشجاعة مكانها في الابحاث إلى جانب ليزا ، وماريا ، ومادلين ، وايرين ، هؤلاء المريضات النموذجيات اللواتي يحدهن قارئ مؤلفات

جانيه ، في هذا أو ذاك من كتبه ، كبطلات مشهورات وأليفات .

بيد أنه كان لعالم نفس امير كي ، ليتنير ويتمير ، الفضل في أنه أول من استعمل التعبيرين : « علم نفس عيادي » و « منهج عيادي في علم النفس » . فقد ابدى ، مثل كاتيل ، اهتماماً ظاهراً بالتطبيقات العملية الممكنة للتعالم التي تلقاها كل منها عن فوندت . وفي حين وجه كاتيل بشكل حازم ، تحت تأثير غالتون ، التطبيقات الصناعية في الاتجاه الاحصائي التجريبي (المسمى غالباً « علم النفس القياسي ») ، فقد اهتم ويتمير بدراسة معمقة للحالات الفردية للأطفال الصعبين أو اللأسياء .

وكان قد اثار الاهتمام ، في الولايات المتحدة ، قبل هذا بخمسين سنة ، الطبيب الفرنسي أ . سيفين^(١) (١٨١٢ - ١٨٨٠) . وكان هذا تلميذاً لـ ايتارد^(٢) الذي تأتى له أن يعالج « حالة » مشهورة ، وهي حالة « متوحش أفيرون »^(٣) ، وهو صبي مسكين ، شب في حالة توحش ، فتخلف تخلفاً فكرياً هائلاً . وكانت النتائج التي حصل عليها ايتارد ضحلة تقريباً ، ولكنها كانت كافية لتوحي لتلميذه سيفين بالفكرة القائلة بان البلادة لم تكن ناجمة بسبب نقص (خلل) أو تشويه في الدماغ ، بل بسبب توقف النمو والتطور ، وأن تدرب الحواس يمكننا من التغلب عليها (وهنا نجد تأثير كوندياك) . وبمساعدة من اسكيروول^(٤) ، فتح سيفين (على نفقته) ، في سنة ١٨٣٧ ، مدرسة للبلداء ، في ماوى بيسيت^(٥) ، وفي سنة ١٨٤٤ نوهت اكااديمية العلوم باعماله . وفي سنة

1 - Séguin .

2 - Itard .

3 - Aveyron .

4 - Esquirol .

5 - Bicêtre .

١٨٧٤ قرأ طبيب اميركي، هو ويلبور، في « جورنال دي شمير » « ريبورتاجاً »
استطلاعاً عن مدرسة سيفين، واستحصل على الكتاب الذي نشره هذا سنة
١٨٤٦ : « العلاج الاخلاقي ، حفظ صحة وتربية البلاد وغيرهم من الاولاد
المتخلفين » . وعندما اضطر سيفين، سنة ١٨٥٠ ، للهجرة إلى الولايات المتحدة
لاسباب سياسية (كرهه للويس نابليون بونابرت) ، امكنه زيارة ومساعدة
ثلاث مدارس نشأت بناء على اعماله : سوث بوسطن ، بار (ماساشوستس) ،
الباني . وشارك حتى آخر حياته في نشاط عدة مدارس أو مؤسسات للمتخلفين
(سيراكوس ، كونكتيكوت ، أو هيو) ، وقولى بنفسه ادارة احدها في
بنسلفانيا ، أي في المكان ذاته الذي سيؤسس فيه ويتمير ، فيما بعد (بعد عدة
عشرات السنين) « عيادته النفسانية » . واخذ ويتمير ، بعد أن خلف كاتيل
في جامعة بنسلفانيا، يعلم علم نفس الولد سنة ١٨٩٤ - ١٨٩٥ . في هذه المناسبة،
عرض عليه مدرس في مارس (اذار) سنة ١٨٩٦ ، أن يدرس حالة طفل عاجز
عن تعلم الاملاء . وسرعان ما رأى ويتمير الفائدة التي يمكن أن يؤديها تطبيق
علم النفس على قضايا من هذا النوع، فأسس في ذات السنة ١٨٩٦ ، مؤسسة دعاها
« سيكولوجيكل كلينيك » (العيادة النفسانية) وخصصها لـ « اعادة تأهيل
التأخرين وغير الاسوياء » . وفي نفس السنة ذاتها ، ١٨٩٦ أيضاً ، عرض أمام
الجمعية النفسانية الاميركية الناحية النظرية من العمل التطبيقي الذي قام به .
ولاول مرة استعمل التعبير « المنهج العيادي في علم النفس » وعرفه بأنه منهج
في البحث يقوم على استعمال نتائج فحص مرضى عديدين ، ودرسهم الواحد تلو
الآخر ، لاجل استخلاص مبادئ عامة توحى بها ملاحظة كفاءاتهم وقصورهم
(نقائصهم) . فـ « العيادات النفسانية » يجب أن تكون المكان الذي يطبق فيه
هذا المنهج في البحث ، والمكان الذي يتدرب فيه علماء نفسانيون على تطبيق علم
النفس في مجال « الصحة المهنية التربوية » ، والإصلاحية ، وفي مجال التوجيه
الصناعي والاجتماعي » . وأكد أحد الشهود أن رد الفعل الوحيد الذي أحدثه

ويتميز هو أنه حمل بعض أقدم الاعضاء في الجمعية على رفع حواجبهم رفعا طفيفا. واستمرت عيادة ويتميز مع ذلك كله في العمل حتى ايامنا . وفي سنة ١٩٠٨ أسس صحيفة أسماها «العيادة النفسانية»^(١)، خصصها لنشاطه الذي هو «تلافي ومعالجة القصور والشذوذ الذهني» ، حسب ما ذكر في عددها الاول . لكن تأثير ويتميز الذي ظل أمينا - الى حد كبير ، حتى في الفحوصات الفردية ، للاساليب المخبرية المقتبسة عن فوندت - يبقى تأثيراً طفيفاً .

وفي سنة ١٩٠٩ ، افتتحت في شيكاغو مؤسسة خاصة بالمجرمين الصغار دعيت بـ « معهد الجنوح السيکوباتي »^(٢) ، وتراوح اختيار المدير بين مرشحين : عالم نفساني تجريبي وإحصائي ، وآخر هو طبيب عقلي (نفسي) . واختير لذلك الطبيب العقلي هـ . هيلي الذي كان تلميذ العالم النفساني الاميركي وايم جيمس (١٨٤٢ - ١٩٠١) والذي تأثر بالعلم النفساني المرضي الفرنسي . كما تأثر هيلي ذاته جداً بفرويد (الذي كان مدعواً ، كما نذكر ، بصورة رسمية من قبل ستانلي هـل الى الولايات المتحدة ، في سنة ١٩٠٩ ذاتها) . وبواسطة هيلي ستصبح السيکولوجيا العيادية سيکولوجيا دينامية قريبة من الطب العقلي . وبمعكس ما كان عليه ويتميز فقد أحدث هيلي تأثيراً كبيراً في التطور اللاحق لعلم النفس العيادي .

عقب ذلك ، سوف يشرع بالكلام عن « علم النفس العيادي » ، بالمعنى الواسع للكلمة ، في كل مرة سيحاول فيها عالم نفساني ما مساعدة مريض معين مساعدة عيانية محسنة . فقد كان هؤلاء المرضى يأتون لاستشارة العالم النفساني لانهم يشعرون بالمصاعب : فهم أولاد معاقون في نومهم العقلي ؛ تلاميذ يجدون

1 - The Psychological Clinic .

2 - The Juvenile Psychopathic Institute.

صعوبات مدرسية غير سوية ؛ شباب أو راشدون يجدون صعوبات في تعلّم أو إعادة تعلّم مهنة ؛ أحداث جانحون ؛ عصا بيون . هذه المصاعب الخاصة كانت تصنف الكثير منهم ، بشكل أو بآخر ، بين « غير الاسوياء » . من هنا كانت الاتجاه الى الخلط احياناً بين علم النفس العيادي وعلم النفس الطبي . وفي الواقع ، فتحق الانسان السوي له أيضاً مشاكله التي يمكن أن تهم العالم النفساني العيادي . انما حدث أن هذا لم يعد يسمى كذلك : ففي فرنسا سوف يسمونه مستشار التوجيه المدرسي والمهني (تحت تأثير هـ . بيرون تأسس معهد قومي للتوجيه المهني سنة ١٩٢٨ ، وانشيء دبلوم دولة من أجل مستشار التوجيه المدرسي والمهني سنة ١٩٤٤) ، وعالم نفساني مدرسي (ابتداء من سنة ١٩٤٥ . انظر الفصل التالي) ، بحيث ينحصر مجال علم النفس العيادي بـ « غير الاسوياء » و احياناً — وانما على نطاق اضيق — باولئك الذين من بين هؤلاء الاسوياء يذهبون لاستشارة الطبيب العقلي الذي أصبح العالم النفساني العيادي مساعده الاعتيادي .

فاذا كان تحديد مجال « علم النفس العيادي » مبهماً إلى حد ما ، فكذلك هي الحال أيضاً بالنسبة لمنهجه . فالمحتوى الاساسي لتعبير « المنهج العيادي في علم النفس » ، هذا المحتوى الذي قصد اليه ويتميز في السابق ، يتوافق مع فحص الحالات الفردية (فحصاً يفترض أن يكون عميقاً) . ان ضرورة معرفة حياة المريض ، كل ما أمكن ذلك ، بكاملها ، ظهرت خلال العقد الاول من هذا القرن ، وبالاخص ، على ما يبدو ، تحت تأثير التحليل النفسي . لكن هذا التأثير ليس بالوحيد الذي يتعرض له العالم النفساني العيادي ، إذ هناك تأثير اساليب اخرى كاسلوب الروايز العقلية الذي عرف ازدهاراً خاصاً في الولايات المتحدة حيث كان يطبق أيضاً بصورة واسعة جداً « سلم انذكاء » ، هذا السلم الذي أوجده بينيه وسيمون . والذان ادخلا الى الولايات المتحدة (غودارد وهيلين ، كل على حدة ، سنة ١٩١٠) كانا كلاهما من الاطباء العيادين . ونشر هذا الاخير في سنة ١٩٢٧ ، رغم تأثره بعلم النفس المرضي الفرنسي

وبفرويد ، كتاباً هو : «الوجيز في الروايز الفردية والريازة»^(١) وذلك بمعاونة برونر . حينئذ كان تاريخ منهج علم النفس العيادي واقعاً تحت سيطرة اتجاهين : اتجاه البحث التاريخي الشامل ، المؤدي الى اقامة جدول بالحالة المدروسة والى تنبوء متنوعين ؛ تيار البحث عن طريق الروايز ، ضمن ظروف موحدة ، وهذا ما يؤدي الى وضع « جانبيات نفسية » بروفيل ، او الى تنبؤات ذات شكل رقمي . وعندما كان يجري عندئذ الكلام عن « المنهج العيادي » كان ما يتبادر الى الذهن هو الاتجاه الاول ، حيث كان يجري ربطه احياناً بـ « التراث الدينامي » الذي خلفه ريبو وجانيه وفرويد ؛ هذا في حين كان التيار الثاني يعود « الى الارث النفسقياسي » الذي نادى به فوندت وغالتون .

يعتبر انتشار المناهج « الاسقاطية » ، انتشاراً واسعاً ، ابتداء من سنة ١٩٣٠ مثلاً على رد الفعل بوجه التراث النفسقياسي (السيكميومي) . ومفاد هذه الطرائق أن يطلب الى المريض تأويل بقعات من خبر (رورشاخ ، ١٩٢١) ، أو مشاهد مبهمه غامضة (موراي ، ١٩٢٥) ، الخ ... ومن خلال التأويل حسب هذا المنوال أو ذاك ، يمكن اكتشاف المحتوى العميق لشخصيته . وكان استعمال هذه المناهج يتم في الغالب في اطار نظري مأخوذ عن التحليل النفسي . يبدو أن هذين الاتجاهين ينطبقان على نوعين من العقلية ، أو على نموذجين من الاهتمامات المختلفة ، والعلماء النفسانيون الذين كانوا يتعصبون لاحدهما قلما كانوا ، بوجه عام ، يرتضون الآخر .

بيد ان هناك اعترافاً ، اخذ يعم رويداً رويداً ، يقرّ بأن على منهج الممارس لعلم النفس واجب المشاركة في كلا الاتجاهين . ثم أن هناك محالوت دمجية تركيبية على الصعيدين النظري والتقني ، اخذت أيضاً تظهر للعيان .

1 — Manual of Individual Tests and Testing .

ان أحد مظاهر التطور المهمة جداً هو المظهر الذي يهتم بعلاقات الطريقة (المنهج) الاحصائية بالطريقة العيادية . فهذه تتحدد بأنها ، كما رأينا ، نقيض تلك . وفوز بينيه قد تأتى الى حد بعيد عن عملية الدمج التي توصل الى تحقيقها . إلا انه يبدو ان تحسين الطرائق الاحصائية يمكن اليوم من التطلع الى درس مشاكل لم يكن تعقيدها ليدرك الا بجدس من الطبيب العيادي . وهكذا فقد أمكن الوصول عن طريق الاساليب الاحصائية إلى تنظيم جدول عيادي بمجموع الاعراض المميزة لمرض عقلي . وترغم الحاجة الى مراقبة النتائج الحاصلة ، أشد الاطباء العياديين تدقيقاً الى اللجوء إلى الاحصاءات . بهذا الصدد أصدرت « المجلة السيكولوجية العيادية » في الولايات المتحدة ، عام ١٩٥٠ ، « أعمال ندوة دراسات احصائية لخدمة الطبيب العيادي » ^(١) .

سكولوجيا الطفل

٥

- ١ - خصائص عامة .
- ٢ - المناهج .
- ٣ - من وصف الاحداث الى النظريات التفسيرية .
- ٤ - بعض النظريات المتشابهة في نمو الطفل .

١ - خصائص عامة

منذ القرن السابع عشر ومفهومان فلسفيان متعارضان يتصادمان بصدد النمو . فالمقلانية الكلاسيكية ترى أن النمو يعود إلى التماثل الحتمي لـ « أفكار فطرية » تكون خاصة بالإنسان وحده . على العكس من هذا ، ترى النظرية التجريبية (Empirisme) أن النمو هو وليد التجربة انطلاقاً من « صفحة بيضاء » . أما الفلسفة التطورية التي نادى بها هنري سبنسر (الذي نشر أولاً كتابه « مبادئ علم النفس » سنة ١٨٥٥ ، ثم عاد فأكماله بين سنتي ١٨٧٠ - ١٨٧٢) فتعتبر أن الأسس العقلية عند الراشد هي فطرية لدى الفرد لكن النوع الإنساني لم يكتسبها ، عبر الآلاف من السنين ، إلا بالتجربة ذات المكاسب القابلة للانتقال .

اعتقد هايكل (Haeckel) ، في تلك الحقبة ذاتها تقريباً ، أننا نرى مراجعة (إعادة) لهذا التطور للنوع في الأشكال المتتالية التي تتخذها النطفة الإنسانية خلال نموها . بل إن آخرين يمددون هذا التشابه المذكور حتى حقبة نمو الطفل . وهذا بحيث تصبح دراسة هذا النمو وسيلة ملاحظة لم تكن مؤهلة لدراسة التطور .

بهذا نرى أية أهمية سيتخذها علم نفس الولد . والمدارس السيكولوجية التي تكلمنا عنها قد اهتمت ، ومنذ ظهورها تقريباً ، بهذه السيكولوجيا ، على أنها مشكلة رئيسية : فقد عالجها كراسنوغورسكي (Krasnogorski) ، تلميذ بافلوف ، منذ عام ١٩٠٧ ، وواطسن ، مؤسس السلوكية ، منذ سنة ١٩١٩ ، وكوفكا ، الجشطالتي (عالم نفس الشكل) ، منذ ١٩٢١ .

من هنا نفهم أيضاً أن علم نفس الطفل قد أدى إلى أشهر الدراسات حول علم النفس برمته : قياس الذكاء من قبل بينيه (١٩٠٥ ، ١٩٠٨) ، والنظرية الجنسية عند المرضى العصبيين من قبل فرويد (١٩٠٥) .

سنرى أيضاً كيف أنها أثارت مجالات ومناقشات تتجاوز ، بصورة جلية أو مضمرة ، وإلى حد بعيد جداً نطاقها الخاص بها .

٢ - المناهج

إن أبسط وسيلة لتحديد الترتيب الذي تتم المكتسبات وفقاً له ، خلال النمو ، هو ما تمكننا منه ملاحظة نفس الأشخاص خلال كل فترة هذا النمو . فطبيعة قضية علم نفس الطفل ذاتها ، توجه هذا العلم النفسي نحو استعمال « المنهج العيادي الكلينيكي » الذي أشرنا إليه في الفصل السابق . وسيكون هذا الاتجاه مميّزاً بمقدار ما يجد العالم النفسي في أشخاص اولاده هو ، مواضع يسهل عليه الاتصال بها يومياً وخلال عدة سنوات . يتكون أول منهج يتبعه العالم النفسي من اجراء الدرس على اولاده هو بالذات وذلك بشكل محايد وموضوعي ما أمكن ، خلال السنوات الأولى من غوهم ، على أن تجري إبانها محاولة لعدم اهمال أي من المؤتمرات التي تطالهم ولا أي من ردود الفعل لديهم . من ثم تجدر الإشارة إلى أن القسم الاوفر من المسافة الفاصلة بين المولود الجديد والراشد يجري اجتيازها خلال هذه السنوات الأولى .

إذا لاحظنا أن مؤلفات سبنسر ودارون وهايكل قد صدرت ما بين ١٨٥٥ و ١٨٧٠ ، فانتنا لن نندهش اذا اتضح لنا أن الاهتمام المهني الذي صار يبيده العالم النفسي تجاه اولاده قد بدا أكثر ما بدا في المنشورات الصادرة في البضع سنوات اللاحقة لهذا التاريخ .

ومع ذلك ، فهناك رائد يستحق أن يشار إليه بالبنان ، ذلك هو ف . تيدمان ، وهو فيلسوف الماني نشر منذ سنة ١٧٨٧ في (Hessische

(Beiträge) ملاحظات منتظمة قام بها ابتداء من سنة ١٨٧١ على ولده فردريك . تستشف اهتمامات المؤلف الفلسفية ، فيما يتعلق بالخلاف القديم بين العقلانية والتجريبية ، في عمله هذا . بيد أن الملاحظات ذاتها أجريت لديه مع ابتغاء للموضوعية وذلك على الموضوعات ذاتها التي سنجدتها بصورة منتظمة ، فيما بعد ، عند علماء نفس الطفولة .

في سنة ١٨٧٦ نشرت « المجلة الفلسفية » التي أسسها ريبو انتاجها الاول . افتتحت بمقال اثنى عن « اكتساب الكلام عند الاولاد وفي الجنس البشري » . يكفي هذا العنوان وحده للدلالة على تأثير النظريات التطورية ، وعلى مركز الشرف الذي منح لهذا المقال ، والاهتمام الذي أثارته هذه النظريات . وكانت الملاحظات « المكتوبة في اللحظة ذاتها وفي حقل العمل وتدرجياً » تدور حول ابنة الكاتب . ثم توقفت هذه الملاحظات ، وذلك « بتأثير نوازل سنة ١٨٧٠ المؤلمة » .

منذ سنة ١٨٧٧ ، ترجم مقال تين هذا في مجلة « الفكر » (Mind) ، تلك التي نشرت في ذات السنة : « مختصر لسيرة طفل » لداروين ذاته . وفيه يقول انه اعاد البحث بمذكرات دونت في ذات الحقبة التي جرت فيها الاحداث الملحوظة ، منذ قبل سبع وثلاثين سنة ، وانه طبقها على أحد اولاده ، وأنه أورد المهم منها في كتابه المنشور سنة ١٨٧٢ عن « التعبير عن الانفعالات لدى الانسان والحيوانات » . لكنه رأى انه من المفيد ان ينشر بعض المعطيات الاخرى ليقابلها بما وصل اليه تين وبالملاحظات الجديدة « التي ستطبق » منذ الان فصاعداً ، بكل تأكيد .

وبالواقع فقد صدر سنة ١٨٨١ مؤلف بالملاحظات التي توصل اليها عالم فيزيولوجي من يينا هو . بريير بعنوان : « نفس الاطفال » ^(١) . وكان قد قدم سنة ١٨٨٠ موجزاً لمؤلفه الذي « دفع بالكثيرين الى القيام بمراقبات

وملاحظات جديدة. ان أسلوب بريير دقيق جداً : فقد راقب ابنه « كل يوم » على ثلاث دفعات على الأقل ، صباحاً وظهرأ ومساء .. . » . وحاول « أن يحميه ما أمكن ، من أنواع الترويض (التقويم) المعتادة » . وما تزال الملاحظات التي ذكرها تستعمل حتى أيامنا هذه .

ثم تتالت بعدها الدراسات ، ولن نقوم هنا بعمل افضل من تعدادها ولو بصورة غير كاملة . في سنة ١٨٩٠ ، ظهرت في الولايات المتحدة ، في مجلة « العلم » ، الملاحظات التي دونها بالدوين ، وفي فرنسا ظهرت في « المجلة الفلسفية » أولى ملاحظات بينيه على ابنتيه . وفي سنة ١٨٩٥ نشر « بالدوين » كتابه « النمو العقلي عند الطفل والعرق » ، ونشر بينيه في سنة ١٩٠٣ : « دراسة تجريبية للذكاء » . وغب منشورات شين (Shinn) سنة ١٨٩٣ ومور (More) سنة ١٨٩٦ وماجور سنة ١٩٠٦ ، ظهرت في سنة ١٩٠٧ وسنة ١٩٠٨ الملاحظات التي قام بها وحققها السيكولوجي الالماني شترن مع زوجته على أولادها الثلاثة . وهذه أيضاً ، قد استعملت فيما بعد كثيراً على اعتبار انها ملاحظات دقيقة ، هذا بصرف النظر عن تلك النظرية المثيرة للكثير من الجدل التي نادى بها المؤلفان وهي « الشخصية » (Personnalisme) . وتعمم هذا الاهتمام بالموضوعية في ملاحظة الأطفال . فنجد مثلاً ، في ملاحظات ب . غيوم عن ابنه وابنته ، التي نشرها سنة ١٩٢٥ تحت عنوان : « التقليد عند الطفل » ، أو في ملاحظات بياجيه عن اولاده الثلاثة خلال عاميهم الاولين ، والتي افاحت له فرصة دراسة « ولادة الذكاء عند الطفل » (١٩٣٦) و « بناء الواقع عند الطفل » (١٩٣٧) .

منذ بداية سلسلة الاعمال هذه ، انتبه المؤلفون الى وجود فروقات كبيرة ، بين طفل وآخر ، في نسق (وتيرة) النمو . فاشار تيدمان وتين وداروين وبرير الى هذا الحادث ، واحياناً كانوا يلحون بتواضع ابوي مؤثر الى أن نمو ولداهم « كان طبيعياً ، لا مبكراً ولا متخلفاً » (تين) ، وانه « لم يكن سريعاً جداً ولا بطيئاً جداً » (بريير) . وكان تواضع الآباء هذا يسهل كثيراً - وهذا ما

ينبغي الاقرار به - عمل السيكولوجي . فهذا كان يستطيع بالواقع ، ونظراً لعادية ولده ، أن يعتبر ملاحظاته نموذجية فيستعملها ليتحقق من قيمة هذه أو تلك من النظريات العامة . ولم يلبث أن حث هذا الاتجاه الخطى نحو الأكثر من الدقة . فحددت ظروف الملاحظة بدقة حتى أتاح التحديد جمع نتائج قابلة للمقارنة . كما أفاضت الأساليب الإحصائية ، وهي التي كانت هنا بسيطة جداً بشكل عام ، الوصول إلى مكتسب معين (سواء إمكانية تنضيد مكعبات ، أو قول بابا ، أو التعرف على الذات في المرآة ، أو أي شيء آخر) ، هو مثلاً تحديد المعدل المثوي للأولاد ، من سنّ معين ، الذين وصلوا إلى هذا المكتسب ، أو السن الوسطي الذي تحقق عنده هذا المكتسب ، أو التشتت في أعمار الأطفال الذين وصلوا إليه .

وسميت الملاحظات الجارية على مجموعة واحدة ، أو أكثر ، من الأولاد من نفس العمر بالملاحظات « العرضية » ، بينما سميت الملاحظات المستديمة أو التي تتناول نفس الأولاد بالملاحظات « الطولية » .

بدأت أول ما بدأت الدراسات العرضية في ما نشره كوسمول (kusmaul) سنة ١٨٥٩ حول المواليد الجدد بعنوان :

Untersuchungen über das Seelenleben des neugeborenen Menschen .

أن سلم المستوى العقلي الذي نشره بينيه وسيمون في ١٩٠٥ و ١٩٠٨ و ١٩١١ - وهو السلم الذي درس على مجموعات من الأولاد يتراوح عمرهم ما بين ٣ و ١٥ سنة - غالباً ما كان يرد ذكره في الدراسات التالية عن علم نفس الطفل . وفيما خص الأولاد ذوو العمر قبل المدرسي (منذ الولادة حتى السن الخامسة) فإن المساهمة الأوفر هنا تعود إلى العالم النفسي الأميركي غيسيل (Gesell) الذي ، ابتداء من سنة ١٩١٩ ، انكب على تجميع الملاحظات المأخوذة في ظروف جد دقيقة في عيادة « نمو الطفل » في جامعة بال . كانت هذه

الملاحظات في آن واحد طولية وعرضية إذ يركز كتابه لسنة ١٩٢٥ ، « النمو العقلي عند الولد قبل الدراسة » ^(١) ، على فحوصات متكررة في اعمار مختلفة (من ٤ الى ٦٠ شهراً) لتحسين ولداً سوياً وعلى عدد كبير من الفحوصات الاخرى أقل تسلسلاً وتكراراً . وتتناول ملاحظاته هذه الحركية ، والكلام ، والتكيف وردود الافعال تجاه الاشخاص ، هذا وان كلامها يحقق ضمن ظروف محددة تماماً ويتيح معرفة كيفية تصنيف الطفل بين اترابه من ذوي العمر نفسه .

يقدم غيسيل ١٥٠ موضوع بحث في ميادين وفي اعمال مختلفة، أمثال : الدفع بالرجلين ، استعمال الضمائر ، والمجموع ، والماضي ، المعد حتى الاربعة ، تزيير الثياب ، الخ ... وكلها تخضع لذات المعيار . وقد غدت هذه الملاحظات الصبورة المتأنية ، والتي لم ينفك غيسيل واعوانه يزيديونها غنى ، أكثر دقة أيضاً وأكثر حيوية باستعمال السينما استعمالاً منتظماً منهاجاً .

ويمكن للملاحظات ان تطول أو تقصر ، وخلال السنة الاولى على الأقل ، قد تم اجراء ملاحظات متواصلة تتيح معرفة أي نسبة من وقته يستعملها الولد لكل نط من النشاط : نوم ، بكاء ، الخ ... مثل هذه الملاحظات اجريت سنة ١٩٢٥ من قبل غيسيل في الولايات المتحدة ، ومن قبل بشتيرف في روسيا ، ثم بعدها بسنوات قليلة من قبل ش. بوهلر BUHLER في فيينا .

تتيح ملاحظات من النوع الذي قام به غيسيل ، الحكم على نمو ولد معين وما اذا كان « سوياً » او « متقدماً » او « متخلفاً » بالنسبة الى ما هو ملاحظ عادة عند من هم في عمره . هذا الاستعمال الأول للملاحظات يدخل في نطاق علم نفس الفروقات - بالرغم من ان غيسيل أنكر ، سنة ١٩٢٥ ، ان يكون قد اراد تقديم « سلم لقياس النفسي يكون محدوداً وجامداً » .

لكن الملاحظات العرضية ، المجرأة على سلسلة المجموعات ذات الاعمار المتفرقة ،

1 - The mental growth of the pre-school child .

يمكن ان تقدم ايضاً الأسس لدرس مشكلة عامة كمشكلة اكتساب الكلام ،
ومفهوم العدد ، إلخ ... في اطار هذا المنظور عمل ، منذ سنة ١٩٢٣ ، العالم
النفسى السويسري ج . بياجيه .

يصف بياجيه منهجه ويعلق عليه في المدخل الى كتابه لسنة ١٩٢٦ عن « تمثيل
العالم لدى الطفل » . وإذا كان يعترف بفائدة منهج الروايز فيما يتعلق بالتشخيص
(Diagnostic) الفردي ، فهو يعتقد أن هذا المنهج لا يلائم دراسة أواليات
التفكير الطفولي : لأنه لا يتيح تحليلاً كافياً للنتائج الحاصلة وخصوصاً ، لأنه لا
يتيح « حمل الطفل على الكلام » بحرية كافية للحصول على المعدات (العتاد) التي
تمكن من وضع الجواب في السياق العقلي للطفل « الامر الذي هو ضروري للتأويل
المضبوط » . ويمكن الاكتفاء بالملاحظة الخالصة ، كما فعل بياجيه سنة ١٩٢٣ في
كتابه « اللغة والفكر عند الطفل » : فقد اقتطف جُملاً لأولاد يلعبون ويتكلمون
أمامه ، وعزلها ، ورقمها ، ثم اقترح تصنيفاً بداله منطبقاً على مقولات
(Catégories) وظيفية أولية (ابتدائية) . ليس هذا المنهج بعيداً جداً ، في
أساسه ، عن منهج عالم الحيوان بياجيه ، الذي نشر عام ١٩١٢ ، وهو بعمر ١٥
سنة ، دراسات حول الرخويات في مقاطعة الجورا السقي هي قرب مدينة
نيوشاتيل ، وفي فال ، وفي ليان ، والذي قدم سنة ١٩١٨ أطروحة دكتوراه
حول توزيع أشكال الرخويات في جبال الالب عند فال . لكن هذه الملاحظات
« البعثة » لم تعد تكفي السيكلوجي بياجيه (الذي يفسر تطور اهتماماته في
كتاب اسماء : « حكمة وأوهام حول الفلسفة » ، ١٩٦٥) ، إذ يقول : لا يستطيع الولد
التعبير عن كل ما يريد العالم النفساني معرفته ، ويصعب التمييز بين ما يقوله
لي لعب وبين ما يعتقد حقا . لهذا لا بد من الرجوع إلى ما يسميه بياجيه
« الفحص العيادي » . كان يراقب فرضياته خلال المحادثات اللبقة التي يجريها
والتي تمكنه من الحصول على ردود أفعال الولد ، مستسلماً جزئياً له حتى يصل

من خلال مجموعة المحاور ، الى المعنى المقصود ، لدى الطفل ، من تلك الأجوبة المعينة . يركز بياجيه أحياناً هذه الأحاديث حول رائز معتبر كوسيلة فقط لمتابعة التحليل المنطقي ، وأحياناً حول تجارب صغيرة ذكية ، تستعمل كموضوعة (مَبْحَث) لسلسلة كاملة من الأسئلة : لماذا يصعد الماء في الكأس عندما نضع فيه حصة ؟ هل تزداد المعجونة حجماً عندما نرققها ، وهل يزداد عدد الفيشات إذا فرقناها عن بعضها البعض ، الخ ... وتجمع الأجوبة وتصنف إلى مراتب تعتبر ، في أعمار معينة ، دلالة على انتقال إلى شكل من البرهان المنطقي أكثر تطوراً . وتوضح هذه التصنيفات بأجوبة العديد من الاولاد ، اجوبة تذكر كما هي تماماً ومفصلة ، أو تقدم بشكل جداول ذات نسب مئوية . وهكذا درس بياجيه عند الطفل ملكة الحكم وملكة البرهان (١٩٢٤) ، والسببية الفيزيائية الطبيعية (١٩٢٧) ، والحكم الاخلاقي (١٩٣٢) ، ومفاهيم العدد (١٩٤١) ، والكمية (١٩٤١) والوقت (١٩٤٦) والحركة والسرعة (١٩٤٦) ، والفضاء (١٩٤٨) ، والصدفة (١٩٥١) ، الخ . وفي سنة ١٩٥٥ أسس بياجيه في جنيف « المركز الدولي لعلم العلم النشوي »^(١) . وفيه يتعاون علماء النفس مع المناطق ، والرياضيين ، الخ ؛ وقد نشر هذا مجموعة اسمائها : « دراسات في علم العلوم النشوي » ، صدر الجزء الاول منها سنة ١٩٥٧ .

ان المناهج التي مر ذكرها تتطلب كلها ، وعلى درجات مختلفة ، ملاحظة مفصلة وبالتالي ، طويلة نسبياً للأطفال المفحوصين . فهذا الغنى في الملاحظة يحدّ حتماً من عدد الافراد الموضوعين تحت الدرس . وهناك مناهج اخرى تتميز حول هذه النقطة ، عن المناهج السابقة : فهي ترتضي استعمال ملاحظات مجرأة بصورة أسرع ، انما تتناول عدداً أكبر بكثير . القصد من هذا التبديل ، هو الميول فقط ، إذ في النهاية ، يتحد نمط المناهج في بعضها البعض . ومع ذلك فان بعض الاعمال المهمة قد استوحيت ، على ما يبدو ، من الموقف الثاني بشكل خاص .

علم العلم (مبحث العلم) النشوي أو التكويني . Epistémologie génétique - 1

واقدم هذه الابحاث ثمت بإيعاز من ستانلي هل^١ (S. Hall) في جامعة كلارك ، في الولايات المتحدة ، ولاسيما ابتداء من سنة ١٨٩٤ .

كان هل^٢ في المانيا ، تلميذ فوندت وهلمولتس . واهتم هناك بنتائج عملية استقصاء حول معارف الاطفال ، تحققت سنة ١٨٦٩ في برلين باستعمال سلسلة من الاستمارات (طريقة استعمالها غالتون باكرأ في دراساته حول التوائم وحول الصور العقلية ، كما سبق أن اشرنا إلى ذلك) . ولما عاد إلى بوسطن ، سنة ١٨٨٠ ، أخذ هل^٢ يطبق نفس المنهج على أولاد بدأوا دراستهم المدرسية ، ونشر النتائج في كتاب سنة ١٨٨٣ بعنوان : « مضامين أفكار الاطفال عند دخولهم المدرسة »^(١) . كانت غاية التحقيق معرفة المفاهيم التي يمكن أن تعتبر مكتسبة في بداية المرحلة المدرسية . أدل « هل » أنه كان هناك القليل من هذه المفاهيم ، وأنه إذا كان ٨٠ ٪ من أولاد الست سنوات مثلاً ، يعرفون أن الحليب يأتي من البقرة فإن ٦ ٪ فقط كان يعلم أن الجلد هو من أصل حيواني .

لكن « هل » لم يبتدىء باستعمال سلاسل الاستمارات بصورة منتظمة إلا منذ سنة ١٨٩٤ فقط ، وذلك لدرس عدد كبير من مختلف مشاكل الطفولة والمراهقة : الخوف ، الشهية ، بداية المطالعة والكتابة ، أولى مظاهر الحس الموسيقي ، الولد الوحيد ، ردود الفعل في الظلام ، الخ . واستمرت « حركة درس الطفل »^(٢) حتى الحرب العالمية الأولى . مع ذلك ، ومنذ العديد من السنوات ، تعرضت طريقة سلاسل الاستمارات لانتقادات حامية الوطيس . وأول من بدأ انتقاداً من هذا النوع هو ريبو في أول عدد من « المجلة السيكولوجية » . يعتقد ريبو أن علم النفس باستعماله للاستمارات ، لا يفعل غير أن « يراكم عملة مزيفة » . لقد كان يتعشم اجراء فحص بصورة انتقادية للطريقة هذه ؛ ثم انه يضيف : « وفي

1 - The contents of children's minds on entering school .

2 - Child Study Movement .

الختام ، بدأت الشكوك تُحوم حول الاستمارات . والمنهج الاحداث - وهو منهج الروائز - والذي ما علي أن احاول تقييمه في هذا المقال ، يبدو لي كمحاولة مقبولة للحلول محلها .

في الحين ذاته الذي كان فيه ريبو يكتب هذا ، كان بينيه يعمل على الانتهاء من وضع سلم الذكاء ، الذي كان من شأن نجاحه المساهمة بقوة شديدة في تحويل الاهتمام عن « الاستمارات » إلى الروائز .

ترجم هذا السلم عدة مرات في الولايات المتحدة . كان أبرزها ذلك الاقتباس الذي قام به ترممان (L . Terman) سنة ١٩١٩ والذي استعمل ما صنعت يداه هو بالذات ، عندما قام بأبحاث على الصفات التي تميز الولد الموهوب « النموذجي » عن الولد السوي « النموذجي » . ثم نشر هذا نتائج أبحاثه في سنة ١٩٢٥ وسنة ١٩٣٠ بعنوان « دراسات نشونية حول العبقرية » (١) . وقد فحص أكثر من ١٤٠٠ طفل كانت نتائجهم في الروائز تتجاوز النتائج التي حصل عليها ٩٩٪ من رفاقهم ، ثم أجرى مقارنة بينهم وبين جماعة مؤلفة من ٦٠٠ الى ٨٠٠ ولد غير منتقين . وتناول البحث لا الذكاء الذي قيس بالروائز فقط ، بل شمل أيضاً العائلة ، والنمو الجسدي ، والتاريخ الطبي والمدرسي ، والمعارف والاهتمامات . واثاحت الوسائل الضخمة المستعملة هنا امكانية فحص عدد كبير من الاطفال بدون الاقتصار الشديد على الفحص ذاته .

والاستقصاءات الاحداث زمتا زادت على نطاق واسع في عدد الاطفال الذين خضعوا لفحص أكثر اختصاراً ، بغية مواجهة بعض القضايا السكانية العامة .

1 - Genetic studies of genius :

فقد درس في سكوتلندا، مجلس الابحاث التربوية السكوتلندي بتحريك من العالم النفسي تومسون ، تطور الذكاء لدى الاهالي وذلك باجراء الروائز على ٨٧٤٩٦ ولداً من عمر ١١ سنة في عام ١٩٣٢ و ٧٠٨٠٥ ولداً عام ١٩٤٧ . وفي فرنسا قام تحقيق حول « المستوى العقلي للولاد في سن الدراسة » ، وتناول الاستقصاء تطبيق رائز على ما يقارب من ١٠٠,٠٠٠ طفل يمثلون الجماهير الطلابية الفرنسية بين ٦ الى ١٢ سنة (مجلد رقم ١ ، السنة ١٩٥٠ ؛ والمجلد رقم ٢ لسنة ١٩٥٤) ، وأجرى الاستقصاء المعهد الوطني للدراسات السكانية . ثم أجرى تحقيق (استقصاء) جديد ، من ذات الحجم من قبل ذات المعهد بالتعاون مع المعهد الوطني لدراسة العمل والتوجيه المهني (١٩٦٥) . ونظم هذا المعهد الاخير استقصاءات تناولت عدداً كبيراً من المتغيرات الملحوظة : ٢٥٠ ثقلاً لوحظت على ١٠,٠٠٠ طفل خلال استقصاء حول التوجيه في نهاية الحلقة الاولى الثانوية ، سنة ١٩٦٤ .

يتوافق هذا الاستعمال للعدد الكبير جداً من النتائج ، لدى المؤلفين في هذا النموذج من الاعمال ، مع الرغبة في السيطرة على ما يمكن أن تكون عليه الملاحظة اليومية لولد ما ، من تجزئة ومن رجرجة . ففي مجال الملاحظة لا يجب حتماً أن « تغطي الشجرة الغابة » . كما يجهد مؤلفون اخرون في تجنب الخطر ذاته بمناهج اخرى ، كالتحليل العاملي ، المنوه عنه في الفصل الثالث ، والذي يتيح التجميع معاً للاحداث التي تنزع الى الظهور أو إلى التغير بشكل متزا من

طبق بورت و ه . واطسن ، سنة ١٩٥١ ، التحليل العاملي على الدراسة « الطولية » لطفل واحد ، بنت صغيرة ، تكررت عليها التجارب ذاتها خلال فترات مختلفة من عمرها . لقد مكن التحليل من إعادة تجميع السلوكات التي ، عبر الزمن ، تكاملت أو زالت معاً . ومن المعروف أن من شأن إعادة التجميع هذه (التصنيف) أن تسهل تأويل الملاحظات .

لكن العاملين بوجه عام ، يتصرفون على أساس دراسات « عرضية » .
فيجري البحث ، على مجموعات من أعمار مختلفة ، لمعرفة اللحظة التي تبدأ فيها
النجاحات ، في سلسلة معينة من المهام المختلفة ، بالميل الى التزاوج (فالطلاب
الذين ينجحون في الاختبارات الاولى هم غالباً ، الذين ينجحون في الاخرى) .
من الممكن تفسير هذه النزعة ، في العمر الذي تظهر فيه ، بأنها أعمال لوظيفة
سيكولوجية مرتبطة بكل المهام المطلوبة . وعلى سبيل المثال ، جرى البحث
بهذه الوسيلة ، عن العمر الذي يبدو فيه « الاستعداد التقني » المتيح لارتقاء
تنبؤ بالنجاح المدرسي أو المهني اللاحق . طرحت القضية في انكلترا بشكل
خاص حيث يمارس التوجيه المدرسي منذ السنة الحادية عشرة للطفل . وقد
حاول العديد من علماء النفس البريطانيين حل هذه المشكلة باستخدام التحليل
العامل على سلاسل من مجموعات الاطفال من مختلف الاعمار : سلاتر (Slater)
في سنة ١٩٤١ وسنة ١٩٤٣ ، درو (Drew) سنة ١٩٤٧ ، ادكوك (Adcock)
سنة ١٩٤٨ ، بيل (Peel) سنة ١٩٤٩ ، الخ .

كما يمكن أيضاً متابعة تطور الارتباطات الملحوظة بين بعض النتائج ، من
عمر الى عمر ، كحال الارتباطات الحاصلة في المدرسة ، بصدد مواد مختلفة .
وقد درس بوناردل ، سنة ١٩٥١ ، تطور هذه الارتباطات من الصف السادس الى الصف
الثاني وفي البداية بدت النجاحات مترابطة ، متشاركة ، لا توحى بالنسبة للاولاد
الا صغراً ، إلا بفرضية عامل وحيد ، وإذن فهو عام ، هو النجاح في المدرسة .
وابتداء من الصف الرابع فقط تميزت مجموعتان من العلامات تضم الاولى المواد
العلمية والاخرى المواد الادبية .

٣ - من وصف الاحداث الى النظريات التفسيرية

تم اتفاق عريض حول الكثير من الاحداث التي جرت وفقاً للمناهج الآنفة الذكر . وعلى العكس ، هناك اختلاف كبير جداً في النظريات التي ترنو الى شرح نمو الطفل . حتى المسائل الابتدائية الاساسية يوجد حولها نقاش حاد : ما هو الدور الذي يجب أن تلعبه النظرية بصدد الاحداث الملحوظة ؟ في أي حين يقال أن حدثاً ما لم يوصف فقط بل انه فسر أيضاً ؟ هذه المشاكل تعترض كل علم ، وبالاخص كل فروع علم النفس . الا انها لا تتخذ في أي مجال ، الحدة التي تأخذها في دراسة الطفل ، وهذا ما يشكل اثباتاً جديداً للصفة « الرئيسية » لهذه الدراسة . وبالطبع ، فان أي عالم نفسي لا يدعي الاكتفاء بتقديم مجرد لائحة بسيطة بالملاحظات (هذا بالرغم من أن اعمال - تلك التي وردت هنا كثيراً - بريير وغيسيل هي بالضبط الاقرب من هذا الاتجاه) . كما أنه لا يدعي أحد ما الاكتفاء بالنظرية فقط والتجاهل عن عمد لكل معطى تجريبي . إلا أن الاقتراب من الموقفين المتطرفين يتم أحياناً ، بينما تكثر المواقف الوسيطة بينهما .

أن التأثير الذي يحدثه اعتماد نظريات مختلفة ، أو اعتماد موقف الرفض لكل نظرية ، يبرز بجلاء ، على سبيل المثال ، بصدد قضية ذات مظهر بسيط كقضية مراتب أو مراحل نمو الطفل . فقد عمل الكثير من الكتاب على إعادة تجميع المكاسب المحققة خلال حقبات بدا لهم اثناءها حدوث شكل من التوازن الموقت ، المتميز بجملة من الصفات المتماكة فيما بينها والمتراكبة (المبينة) . إلا أن اختيار هذه الحقبات يتعلق الى حد كبير بالنظريات العامة

المتعلقة بالنمو . بحيث أن أوستريث (P. Osterrieth) - عندما حاول مقابلة ومواجهة ثمانية عشر مذهباً من المراتب التي قال بها الكتاب الاوربيون والاميركيون وذلك في دورة الدراسات التي قامت بها « الجمعية السيكولوجية ذات اللغة الفرنسية » (جنيف ، ١٩٥٥) والمخصصة لهذه المشكلة ، لاحظ أن هذه المذاهب تجزىء النمو الى احدى وستين حقبة زمنية مختلفة ، هذا بدون اتفاق كبير فيما بينها إلا فيما يخص السنة الأولى من الطفولة .

عدا ذلك يمكن أن نلاحظ ، حول هذا المثل ذاته ، أن المضمون نفسه لمفهوم المرتبة Stade يمكن أن يختلف بين كاتب وآخر ، وذلك وفقاً لما يتخذ من اتجاه نظري عام . ذلك هو بشكل خاص ، حال كاتبين فرنسيي اللغة يحتلان مكاناً مرموقاً جداً في حقل علم نفس الولد وهما : بياجيه و هـ. فالون (H.Wallon) (١٨٧٩ - ١٩٦٢) .

بالنسبة إلى بياجيه ، يعتبر النمو ، بشكل جوهري ، تصاعدياً ، ومستمراً ، ومتسماً بوحدة وظيفية عميقة . واذن ، فمراتب النمو هي بمثابة الحدود ، المعالم ، على طول الطريق التي يتوجب على الولد اجتيازها ، مدفوعاً باستمرار بعدم تلاؤم تصرفاته ، نحو بلوغ حالة التكيف والتوازن الموجودة عند الراشد . وكتب سنة ١٩٢٦ « أن تاريخ نمو الطفل العقلي هو ، في معظمه ، تاريخ التجمعين (التأنيس) التدريجي لفكر فردي يكون في البدء مستعصياً على التكيف الاجتماعي ، ثم يأخذ في التأثر أكثر فأكثر بالمؤثرات المحيطة التي تصدر عن الراشدين » . هذا الانتقال التدريجي والطبيعي نفسه ، وهذا التقدم المستمر بدون انقطاع نفسه يوجدان في « الحكم الاخلاقي » (١٩٣٢) ، وهذه البنينة (Structuration) المتصاعدة ذاتها للمفاهيم الحسابية توجد أيضاً في درس ، في كتاب « ولادة العدد » (١٩٤١) . فشرح الذكاء يعني : وضع العمليات العليا على اتصال مستمر بكل النمو ، على أن يفهم هذا بأنه تطور موجه من قبل احتياجات داخلية للتوازن . من ثم فهذه الاستمرارية الوظيفية تتحالف تماماً مع

تميز البنيات المتتالية ، (١٩٤٧) . وعندما حُلل بياجيه الكتاب الذي هدف فيه فالون إلى شرح الانتقال عند الولد - في كتاب « من العمل إلى الفكر » (١٩٤٢) - من الذكاء الذي يتيح لنا منذ الوقت المبكر جداً أن نكيف حركاتنا حسب المواقف ، إلى الذكاء المجرد والتصورى الذهني الموجود لدى الراشد ، تعجب كيف انه لم يجد في كتاب فالون هذا « الاستمرارية بين الصعيد المحرك وبين الصعيد اللفظي - الحدسي » ، كما استنكر كيف يمكن ، بدون هذه الاستمرارية ، « تفسير الحادث الجوهرى لسير العمليات المنطقية نحو توازن تدريجي » .

وفي الواقع ، يبدو تسلسل مراتب الطفولة بالنسبة إلى فالون ، على انه ، بصورة أساسية ، غير مستمر : « أن الانتقال من مرتبة إلى أخرى ليس مجرد تضخم بل هو تعديل ... وفيما بين المرتبتين يبدو ، في الغالب ، قيام أزمة ... فالصراعات إذن ترقم وتسم التمرعرع ، كالمكان الامر يتعلق بالاختيار بين نموذج قديم ونموذج جديد من النشاط . فالذي من هذين النشاطين يخضع لقانون الآخر لا بد عليه أن يتحول ، ثم يخسر بعد ذلك قدرته على تنظيم سلوك الولد بشكل نافع » . ويصر فالون كثيراً على هذا المفهوم للنمو المنطبع « بالازمات » ، « وبالصراعات » التي يشبهها بـ « التحولات الفجائية (Mutation) » وبالثورات ، في الكتاب ذاته (التطور السيكولوجي للطفل ، ١٩٤١) أو في كتب أخرى . ثم هناك عاملان لا ينفصلان يتدخلان في هذه الازمات : احدهما ، بيولوجي ، وقوامه نضوج الجهاز العصبي الذي يكمل في اوائل سنوات الحياة ، مما يتيح ، وعلى مراحل ، امكانيات فيزيولوجية جديدة للطفل ؛ والآخر ، اجتماعي ، تشكل المواقف التي يوصل اليها نضوج الوظائف لدى الطفل ، والتي بدونها لا يمكن لهذه الوظائف أن تنمو . والازمات هي اللحظات في عملية النمو التي يصل فيها تطور هذين العاملين إلى نقطة يؤدي تفاعلها فيها إلى ولادة نظام تفاعلات جديد . و « إلى سلسلة هذه النقط الاولى (الاصلية) تعود دراسة أصول التفكير عند الطفل » (١٩٤٥) .

وإذن ، فالاختلاف حول هذا المفهوم المرتبة جلي تماماً بين المؤلفين . ما هو مرد ذلك ؟ يعتقد فالون أن بياجيه يكتفي بوصف النمو في حين يعتقد انه يفسره . وقد أخذ عليه هذا المأخذ منذ سنة ١٩٢٧ في التقرير الذي أصدره عن كتابه « تمثل العالم عند الطفل » . ثم عاد إليه ككرة أخرى سنة ١٩٤٢ في الفصل الذي خصصه لبياجيه ضمن كتاب « من العمل إلى الفكر » (الفصل الذي « يشمر فيه بياجيه انه يجد صعوبة في معرفة ذاته » ، وهذا ما كتبه عندما قام بدوره بتقديم كتاب فالون) . وإذن ، هذا الالتباس بين الوصف والتفسير ، بنظر فالون ، هو الذي يؤدي دائماً إلى اعتبار النمو سيروية مستمرة . ولهذا الغرض كتب يقول ، سنة ١٩٤١ ، بصدد مراحل النمو : « يتم الانتقال ، برأي بعض الكتاب ، من مرحلة إلى مرحلة بعبورات غير محسوسة ... ولا شك أن هذه الاستمرارية هي بالواقع ، كل ما يمكن أن يكتننه منها ذاك الذي يتفرغ لمجرد وصف المظاهر أو الاستعدادات المتتالية التي تظهر في سلوك الطفل » .

وإذا بحثنا بعدها في أعمال بياجيه عن ما دفع فالون إلى تكوين هذا الرأي فاننا سنلاحظ فيها أن تحليلاته للنمو تركز على المسئلة القائلة بجمعية تكيف الولد وفقاً لعقلية وللمجتمع الراشد . ثم ان بياجيه ينطلق من هذا التكيف كما ينطلق من حادث . فبالنسبة له ، « ان فكر الطفل ، منذ بدايات النطق ، معد للذوبان تدريجياً في الفكر الراشد » (١٩٢٦) ، ان « احتياج الاحتفاظ (بالكميات) يشكل نوعاً من التسليم المسبق الوظيفي في التفكير ... وهذا الاحتياج يفرض نفسه بالضرورة » (١٩٤١) ؛ وان النمو « يفهم على أنه تطور موجه من قبل احتياجات داخلية الى التوازن » ، ويتعلق الذكاء « بقدرة الحياة ذاتها على التشكل النشوي » (١٩٤٧) (١) .

إلا أنه من الجوهرى أن نلاحظ ، بالنسبة إلى بياجيه ، أن القبول بهذه

١ - التشكل النشوي Morphogénétique : سبق لنا أن استعملنا كلمة وراثي للدلالة على : Génétique ، كما تستعمل امياً كلمة مورني .

المسبقيات [القبلويات] وبهذه الضرورات لا يشكل قط تخلياً عن التفسير ، بل ان ذلك يتوافق مع نوع معين من الفهم للتفسير السيكولوجي : « ان التفسير السيكولوجي الذكاء يؤول إلى إعادة تقفي نموه مع تبيان كيفية انتهائه حكماً و بالضرورة ، إلى التوازن الذي سبق وصفه . وكما هو الحال في علم الاجنة (Embryologie) فان البحث السيكولوجي « يضحى « سببياً ، منذ أن تصبح العوامل التي تؤمن الانتقال من مرتبة إلى مرتبة لاحقة عوامل واضحة للعيان ، (١٩٤٧) .

على هذا ، فانتنا لم نعد نجد أنفسنا تجاه مفهومين مختلفين لمراتب النمو ، ولا تجاه تضاد بين وجهة نظر وصفية ووجهة نظر تفسيرية ، بل نصبح بالتهام تجاه مفهومين للتفسير ، الامر الذي يحمل النقاش إلى مستوى أكثر عمومية .

بالنسبة الى فالون : « يبقى علم النفس ، خارج المادية الديالكتيكية ، علماً هجيناً ... وتكون بذلك المادية الديالكتيكية هي التفسير العقلاني ، الاكثر عقلانية من سواه ، لعلم النفس ... يجد علم النفس في المادية الديالكتيكية علة وجوده وتبريره ؛ كما يجد فيها دلالة وتوضيحاً ولقضاياها الاساسية ... » (١٩٥٤) . وفي الواقع سيلاحظ ، بهذا المعنى ، التشابه بين مفهوم النمو المتقطع عند الطفل وبين احدى الخصائص الاساسية للطريقة الديالكتيكية الماركسية التي تعتبر سيرورة النمو ، لا كعملية ترعرع بسيطة لا تؤدي التغيرات الكمية فيها إلى تغيرات كيفية ، بل كنمو يتحول من تغيرات كمية قافية وكامنة إلى تحولات بادية للعيان وجذرية ، أي الى تحولات كيفية وكذلك أيضاً حيث تكون التحولات الكيفية ، غير تدريجية ، بل سريعة ، فجائية ، تقفز من حال إلى حال قفزاً ؛ هذه التحولات ليست احتمالية بل ضرورية . وبذلك فهي حصيلة تراكم التحولات الكمية غير المحسوسة والمتدرجة . لقد ارتكزت على الملاحظة ، في البدء ، نظريات فالون عن نمو الطفل ، بيد انها من جهة اخرى وعند من قبل الصلاحية الشاملة الجامعة للمادية الديالكتيكية « أكثر اقناعاً نتيجة

اتفاقها مع قانون هو ، حسب قول فالون ، « يتحكم بتطور الكائن منذ النطفة حتى اندماجه في المجتمعات الانسانية ، مروراً بالانواع الحيوانية ، » (١٩٤٦) .

بيد أن هذا الدور التفسيري ، بالضبط ، الذي يعزوه فالون ، في مجال علم النفس ، الى نظرية شاملة ، هو الذي يفصله على ما يبدو ، وبصورة جذرية عن بياحيه ... وفي الواقع ، فانه بنظر هذا الاخير ، إذا ميزنا المشاكل العلمية عن المشاكل الفلسفية ، فذلك ما يعني ببساطة النجاح في عزل هذه القضايا الأولى بحيث لا يؤدي حلها إلى وضع كل شيء على بساط البحث . في حين تبقى القضايا الثانية مرتبطة ومتعلقة بسلسلة غير محدودة من المسائل المسبقة ، التي تتطلب اتخاذ موقف بالنسبة الى شمول الواقع و كليته . واذن فهناك ، في تكوين أي علم ، رفض ضروري وعزم أكيد على عدم حشر الاهتمامات – التي ، بالرغم عنا ، تمز علينا والتي علينا أن نرغم أنفسنا على تركها خارج الحدود المرسومة – بالعرض الموضوعي على قدر الامكان للنتائج التي نصل اليها أو التفسيرات التي نلاحقها ... ان كل تاريخ الفكر العلمي هو تاريخ الانفصال التدريجي للعلوم الخاصة عن الفلسفة (المدخل إلى علم العلم النشوي ، ١٩٥٠) (١) .

نرى ، من خلال هذه المقارنة ما هي النتائج البعيدة – التي تصل تقريباً إلى حد ادراك الاحداث ذاتها – التي يمكن أن يؤدي اليها اتخاذ المراقب موقفاً نظرياً معيناً . ومهما كانت اهمية نظريات بياحيه وفالون في علم نفس الطفل ، فان المسألة تتجاوز هذه النظريات وتتجاوز علم نفس الطفل . وليست هذه بالمشكلة الجديدة : اذ يمكن مثلاً ، مع الإكتفاء بنقل الجدل السابق ، إعادة قراءة اعتراضات سبنسر على « تفسيرات » تطور الأنواع الحيوانية ، المقترحة من قبل لامارك وإيراسم داروين .

1 - Introduction à l'épistémologie génétique , 1950 .

ان « التكيف الوظيفي » مع مقتضيات الحياة ، الذي أشار اليه هذان الكاتبان ، لا يعتبر كافياً في نظر سبنسر . فقد كتب يقول في « مبادئ البيولوجيا » (١٨٦٤-١٨٦٧) : يبدو من وجهة نظرنا الحالية أن هذا العامل ، كسبب للتطور ، هو سبب قريب ، وليس السبب الاول ... وطالما أن عملية تطور الاجسام لم تربط بعملية التطور بوجه عام ، فلا يمكننا أن نقول بيقين تام انها قد فسرت . ذلك ان ما هو ضروري اثباته هو ان مختلف نتائج التطور البيولوجي هي قرائن للمبادئ الاولى . والمهمة التي تقع على عاتقنا هي أن نوفق ما بين الاحداث والقوانين الشاملة المتعلقة باعادة توزيع المادة والحركة ، ومن المعروف ما كانت عليه بالواقع الشمولية لمبادئ سبنسر الاولى ، اذ أن المثل « الابطس والواضح » الذي يعطيه سبنسر عليها هو تكوين النظام الشمسي (كتاب « المبادئ الاولى » ، ١٨٦٢) . الا ان المشكلة ما تزال قائمة ، كما دلت على ذلك المناقشات والخلافات التي وسمت ، في مجال علم نفس الطفل كما في مجال علم نفس الفروقات ، الحقبة التي كان فيها مفهوم جديد للعلم عرضة للدفاع عنه بحماس في الاتحاد السوفياتي ، وموضعا لبعض الاعمال البيولوجية التي ألحنا إليها في الفصل الثالث .

٤ — بعض النظريات المتشابهة في نمو الطفل

مع ذلك ، ودونما قبول نهائي للفكرة القائلة أن التفسير العلمي هو ربط للاحداث الخاصة بالنظريات الشاملة ، نرى الكثيرين ممن درسوا نمو الطفل قد اقتنعوا بأن قوانين هذا التطور لم تكن غير متشابهة مع القوانين المتحركة بالتطورات الاخرى : تطور الانواع الحيوانية والمجتمعات البشرية ، والتطور التقهقري للمريض . وقد آل الكثيرون الى استعمال هذا الترابط — الذي يعتبره البعض ضيقاً تاماً ، والبعض الآخر ، بعيداً جداً — لتوضيح وتأويل الملاحظات التي جمعوها عن الطفل . وتختلف هذه التأويلات احياناً عن بعضها البعض كثيراً ، وخصوصاً حول مشكلة دور الفطري ودور المكتسب ، دور الوراثة ودور

البيئة ، دور العوامل البيولوجية والعوامل الاجتماعية .

تعتبر هذ المقارنات والمجاذلات متعددة ومتداخلة ، ويستحيل اعطاء لمحة عنها كاملة . لقد سبقت الاشارة الى بعضها : المقارنة بين الطفل والحيوان (وقد دفعت الى مقارنات 'مذهبة' قام بها بوتان سنة ١٩١٤ ويركيس سنة ١٩١٦ وكوتشالت سنة ١٩٣٣ ، وغيرهم) ، المقارنة بين الطفل والسقيم (بينيه ١٩٠٥ - ١٩٠٨) او المريض (فرويد ، ١٩٠٥) .

الا ان اعم المقارنات المستعملة بصدد نمو الطفل قامت على ملاحظة ان انتقال النطفة البشرية يمر بسلسلة متتابعة من المراحل التي تتطابق مع المراحل التي يمر بها النوع الانساني خلال تطوره . وكان الاعتقاد ايضاً ان التشبه يمتد الى ما بعد الولادة وان نمو الطفل يذكّر بنمو المجتمعات الانسانية . وقادت هذه المقارنات المغرية بعض المراقبين الى تاويلات حكم عليها منذئذٍ انها ساذجة جداً : نعم ، هناك تشابه أكيد بين تطور الفرد وتطور النوع ، الا أنه أحياناً بعيد جداً ومشوش بصورة دائمة بمفاعيل البيئة الراهنة على الفرد . بيد انه تستطيع اسباب مختلفة ان تعطي فكرة ، فيما خص النوع او الفرد ، عن تتابع مراتب متشابهة بشكل تقريبي . ونرى كيف ان هذا النقاش يتعلق بالنقاش المتعلق بالاهمية النسبية التي هي لتأثير البيئة على النمو : فهذا التأثير لا يمكن الا ان يكون مهماً بالنسبة الى الذين يرون ان النمو الفردي كان قد تحدد بصرامة بفعل التطور السالف للنوع .

تعود الدراسات الاولى المنهجية حول نمو النطفات ، على ما يبدو ، الى القرن الثامن عشر (وُلّف ١٧٥٩) . ثم ان العالم الفيزيولوجي الالماني بائير C. E. Baer هو الذي وجهها في الاتجاه الذي همنا هنا . ففي كتاب له سنة ١٨٢٨^(١) قرر هذا العالم ، مثلاً ، ان التطور الفردي عند جميع الحيوانات الفقرية ، هو واحد في خطوطه الكبرى ، حتى ليستحيل ، في بداية حياة النطفة ، التفريق بين نطفات الافاعي ، والعصافير ، والثدييات . وفيما بعد فقط وخلال مرحلة

1 - Ueber Entwicklungsgeschichte der Thiere .

التطور تبدأ تدريجياً الفروقات الشكلية ، في الظهور والانوضح أكثر فأكثر ، حتى تتميز الاجناس المختلفة والفصائل المختلفة . اخذ هايكل ، استاذ علم الحيوان في جامعة يينا ، هذه الملاحظات وطورها ، واجرى موازنة بين هذا التمايز التدريجي في النطفات وبين التمايز التدريجي في الانواع ، سنة ١٨٦٦ ، في كتابه *Generelle Morphologie des Organismen* ، ولقد بنى على هذه الموازنة نظريته المعروفة باسم « قانون الحياة النشئية (biogénétique) الاساسي » ، وهذا نصه : « ان تكون الكائن الفرد *ontogénèse* او التطور الفردي هو مراجعة قصيرة وسريعة لتكون الأنسال *phylogénèse* ، او لتطور المجموعة المطابقة لهذا الفرد ، اي للسلسلة السلفية [الجدودية] التي تحدر منها » .

الا ان الحجة قد تجاوزت ، قبل هايكيل ، نطاق علم الاجنة . كان سبنسر على علم بجهود باثير (انو استشهد بها في كتابه « مبادي البيولوجيا ») واستند اليه ، والى آخرين غيره ، لدعم نظريته العامة حول التطور . ثم كان سبنسر ، هو ايضاً ، اكثر اقتراباً مما سيصبح عليه اقتراب قانون علم الحياة النشئية (biogénétique) في علم الاجنة ، وذلك عندما لاحظ سنة ١٨٦١ ، في كتابه « التربية : العقلية والاخلاقية والفيزيائية » ، وكان ذاك بصدد الاساليب التربوية الحديثة ، ان : « الحقائق المتعلقة بالعدد ، وبالشكل ، وبالعلاقات الوضعية ، قد استخرجت كلها من اشياء مادية ، وان تقديمها للطفل بشكل عياني يعني تركها له لكي يتعلمها كما تعلمها العرق كله . وسنرى ، ربما ، قريباً جداً انه من المستحيل عليه ان يتعلمها بغير هذا السبيل » . وفيما بعد قام باستعمال واضح للنظرية الجنينية *embryologique* المتعلقة بـ « المراجعة الملخصة *récapitulation* » ، مثلاً في مقاله سنة ١٨٩٥ عن : « مبدأ التطور . جواباً على اللورد سالسبري » .

يبدو ان سبنسر هو الذي ، بشكل خاص ، ادخل نظرية علماء الاجنة الى ميدان علم النفس . هذا وقد اشرنا سابقاً الى مؤلفين ذوي عنوان له مغزى : « مذكرة حول اكتساب النطق عند الاطفال وعند النوع الانساني » (ه . تين ،

سنة ١٨٧٦) ثم « النمو للعقلي لدى الطفل والعرق » (ج . م بالدوين ، ١٨٩٥) ونجد ذات النظرية في الندوة التربوية (pedagogical Seminary) بقلم برك F.L. Burk ، ١٨٩٨ ، بقلم غييه (C. Guillet) ١٩٠٠ ، وفي المجلة الاميركية لعلم النفس ، (American journal of P.) ، وكذلك في مقالات هل سنة ١٨٩٧ ، وبولتن F. E. Bolton سنة ١٨٩٩ ، وداوسن G.E. Dawson سنة ١٩٠٠ ، وسلوتر سنة ١٩٠٢ وباترك سنة ١٩٠٣ الخ ... وهاتان الصحيفتان كان يشرف عليهما في الواقع داعية متحمس للنظرية النسالية [تكوّن الانسال phylogénétique] وهو العالم هل الذي سبق ان ورد ذكره مراراً . ففي مقال ، لسنة ١٨٩٧ ، نشر نتيجة فرز استماراته الاولى ، المخصصة لخاوف الاطفال . وبحسب رأيه ، كل المخاوف لا يمكن ان تفسر بتجارب الفرد ذاته ، بل لابد من القول بان بعضها هو من بقايا المخاوف الجدودية [السلفية] والتي لم يعد لها وجود منذ الاف السنين . الا انه يلجأ لاستعمال الفرضيات النسالية [تكوّن الانسال وتورثها] اكثر ما يلجأ في كتاب « المراهقة » (١٩٠٤) . ان الحركات اللاارادية عند الطفل ما هي الا آثار من السلوكات التي كانت مفيدة في السابق والتي اصبحت اليوم بلا لزوم وبالية (يشير ما كغرو M. B. McGraw ايضاً ، في سنة ١٩٣٩ ، الى ان حركات كل طفل صغير هي بنظره ، حركات سباحية ذات اصل موروث عن السلالة) . اما العاب الاطفال ، بنظر هل ، فهي بقايا نشاطات قديمة نافعة ، كالصيد او العراك . وقد توسع باترك ، في سنة ١٩٠٣ ، بهذا الرأي بمناسبة « سيكولوجية الفوتبول » . ثم عاد فأخذها هل سنة ١٩١٥ ملجأ على الدور المحرر ، « التطهيري » ، لهذه المراجعة الملخصة ، عن طريق اللعب ، للنشاطات الجدودية (وهناك نظريات اخرى عديدة حول اللعب اتى بها : سبنسر ، غروس ، جانيه ، فالون ، شاتو ، الخ ...) . حتى الاهتياج الليلي ، عند المراهقين ، هو برأيه هل ذكرى تأسليه [ردة وراثية الى طباع الانسال السابقة] لليالي التأهب والسلب ... وفي زمن اقرب الينا فقد عولجت نظرية المراجعة الملخصة بحس انتقادي ادهف .

على هذا فقد أوضحت المقارنة بين السيكلوجيا التكوينية psychogenèse العمليات الفكرية وبين الاثرء التاريخي للتراث الجماعي للعلم الى بياجيه ، ببحث كتابه « مدخل الى علم العلم التكويني » (١٩٥٠) (انظر ص ٨٩) .

٥ - تطبيقات

لقد آل بنا الامر ان نشير فيما مضى ، في بعض الفصول السابقة ، الى الكثير من التطبيقات لعلم نفس الطفل . فبمعرض نمو علم نفس الفروقات ، استطعنا ان نرى ان الكثير من الاعمال الاولى قد جرت في النطاق المدرسي : فالروائز التي استخدمها كاتيل وزملاؤه الامير كان سنة ١٩٠٥ ، جميعها قد طبقت على اطفال او شبان احداث . وانتشرت هذه الفحوصات بالروائز ، التي كانت تجري خلال المرحلة المدرسية لغايات التوجيه المدرسي ، اينما كان ، الا في الاتحاد السوفياتي وللاسباب التي وردت في الفصل الثالث .

ان دراسة المناهج التربوية لغرض تكييف افضل لهذه المناهج على امكانيات كل عمر ، قد جرت في كل مكان . ويبدو ان الدراسات التي قام بها اينغهوس حول الذاكرة ، سنة ١٨٨٥ (والتي ذكرناها في الفصل الاول) هي الاكثر اقدمية : فقد ظهر انها شكلت ، في عصرها ذاك ، الاسس العلمية لعلم تربية جديد .

كما كان ، في كل مكان ايضاً ، العالم النفسي يبذل قصارى جهده ، بطريقة فردية ، في مساعدة الطفل على تخطي المصاعب التي يلاقيها اثناء نموه . ذلك هو المظهر العيادي لعلم نفس الطفل ، وتمكن رؤية اصوله في اعمال الفرنسي سيغين (ابتداء من سنة ١٨٩٦) ، التي اشرنا اليها في الفصل الرابع . هذا المظهر العيادي ، المعتمد اولاً بصدد الاطفال الذين يلاقون صعوبات غير عادية ، قد تعم حتى شمل الطفل السوي .

قد يكون طويلاً جداً هنا تتبع تطور المؤسسات التي - في بلدان مختلفة -
اُستُخدمت ، بمثابة ملاكات [كادرات] لهذه النشاطات ، كما حصل الامر
سنة ١٩٤٨ في المؤتمر الدولي الحادي عشر للتعليم الرسمي ، الذي دعت اليه منظمة
اليونسكو ، ومكتب التربية الدولي ، او في الاستقصاء الذي قامت به اليونسكو ،
سنتي ١٩٥٤ و ١٩٥٥ ، حول مصالح ودوائر علم النفس المدرسي في الدول
الاوروبية الاعضاء فيها . ونشير هنا الى ان انشاء مؤسسة العلماء النفسانيين
المدرسين في فرنسا قد تقرر ، بعد التحرير ، من قبل هـ. فالون . ولقد دخلت هذه
المؤسسة الى حيز العمل عام ١٩٤٥ ، وقد كرس مشروع اصلاح التعليم سنة ١٩٤٧
المؤسسة هذه ، وعقد علماء النفس التربويون اول مؤتمر لهم سنة ١٩٤٩ . وaban
السنة المدرسية ١٩٥٢ - ١٩٥٣ ، في مقاطعة السين ، اجري ١٤ عالماً نفسياً
تربوياً اكثر من ٥٠٠٠ فحص فردي واكثر من ٧٠٠٠ فحص جماعي . الا ان
السيكولوجيا التربوية الفيت من هذه المقاطعة ، في مراحل التعليم الاولى ، في
ايلول سنة ١٩٥٤ . وفي سنة ١٩٥٥ ؛ ظل بعض علماء النفس التربويون في وظائفهم
في باريس ، في الكليات ؛ واستمروا في المدارس الابتدائية ، في ليون وغرنوبل .
ثم ازداد عددهم كثيراً منذئذ . وانتقل المختبر السيكلولوجي (النفسحياتي)
المختص بالطفل ، والذي أسسه فالون سنة ١٩٢٨ ، الى ادارة ر. زازو Zazzo منذ
سنة ١٩٥٠ .

علم النفس الاجتماعي

١ - المبادئ العامة

٢ - الأعمال التجريبية وتطبيقاتها

٣ - السيكلوجيا التاريخية عند ميرسون

١ - المبادئ العامة

١ - غرض علم النفس الاجتماعي . - ربما يكون من الصعب اعطاء تعريف لعلم النفس الاجتماعي يمكن ان يرضي جميع الذين يزرعون في حقله . الا ان الغالبية الكبرى منهم ستقبل دون ريب بتعريف غرضه الاسامي على انه دراسة التفاعلات الحاصلة بين الفرد والجماعات التي ينتمي اليها .

هذه الكلمة ، « تفاعل » ، تتضمن « التقابل » الذي يمكن اعطاء مثال بسيط عليه كما يلي : عندما ابدي رأياً فهو يعكس ، من جهة ، المعلومات ودرجات القيم التي تلقيتها من وسطي الاجتماعي . لكن حادث الافصح عن هذا الرأي يساهم في تغيير هذه المعلومات وهذه الدرجات تغييراً طفيفاً جداً . هذا ، بحيث يكون اثر الوسط على كل من الذين يتألف منهم - ولا سيما عليّ انا - قد اضحى مختلفاً ولو اختلافاً بسيطاً . ويمكن تصور مقدار ما يمكن ان تكون عليه هذه الاواليات من تعقيد ، بمقدار كون التفاعلات بين الافراد وبين الجماعات لا تقبل الانفصال عن الاواليات هذه .

اذا كان التعبير « سيكولوجيا اجتماعية » قد استعمل منذ اواخر القرن الماضي ، واذا كانت المؤسسات التي تحمل هذا العنوان قد ظهرت في الولايات المتحدة سنة ١٩٠٨ (روس E. A. Ross وماكدوغال Mcdougall) ، فان الابحاث التي يمكن ان ترتبط بها الدراسات المعاصرة ، تعود الى ما بعد سنة ١٩٢٥ .

في الواقع ، كان الاغراء قوياً من اجل تقادي تعقيدات المشاكل التي يطرحها

علم النفس الاجتماعي اذ كان يمكن ان يتم ذلك على اشكال عدة : اما بفصل دراسة الفرد عن دراسة الزمر^(١) (groupes) الاجتماعية ، او بتفسير الفرد تماماً عن طريق الزمرة ، او بتفسير الزمرة بالفرد . وفي الحالات الثلاث ، تزول صعوبات دراسة التفاعلات . الا ان الغرض المقصود بهذه الدراسة ، اي الانسان الاجتماعي ، كان بذلك يفلت بذات الوقت ويحاد عنه .

وذلك هو ما تأسفه بلدوين (J . M. Baldwin) سنة ١٨٩٥ بهذه الكلمات :
« نحن لا نملك سيكولوجيا اجتماعية لانه لم يكن عندنا عقيدة الشعور بالنوع (سوسيوس) Socius . »

لقد تكونت عندنا نظرية الآنا ونظرية الغير ، لكن كونهما لا تكشفان عن هذا الشعور بالنوع ، يقضي بالحلم عليهما . وهكذا تخطيط 'منظر المجتمع والنظم في بحار الماورائية والبيولوجيا ، دون ان يدله اي سيكولوجي' عوامة النجاة ، حتى ولا سمع احد ما استغاثته .

كان بإمكان أولئك الذين ، مثل بلدوين ، استطاعوا استشفاف غرض علم النفس الاجتماعي ان يتحولوا عنه باستسلامهم لاغراء آخر : ذلك هو تفادي صعوبات الدراسات التجريبية والموضوعية في سبيل التوجه نحو بناء النظريات والعقائد المتكونة « فوق مقعد وثير » . هذا ، بحيث اتيح للعالم الاجتماعي دور كيم ان يكتب سنة ١٨٩٨ : « السيكولوجيا الاجتماعية ... ليست الا كلمة تدل على جميع انواع العموميات ، المختلفة وغير الواضحة ، وبدون ان يكون لها غرض محدد » .

قد يكون من المفيد ان نذكر بعضاً من الاعمال التي ، لاجل واحد من الاسباب السابقة ، تقع على مشارف السيكولوجيا الاجتماعية . ذلك ان حدود حقل هذه السيكولوجيا ليست حتى الان ، وفي الواقع ، محددة تماماً والى الدرجة التي لا يمكن معها لبعض من هذه الاعمال على الاقل ان تعزى اليها بالذات .

ينطبق هذا القول ، بصورة خاصة ، على الابحاث الاكثر حداثة زمنياً والتي ، من زاوية مناهجية ، تنجو من حكم دور كيم القاسي .

لا يمكن طبعاً ، للتفاعلات بين الفرد والزمرة الاجتماعية ان تؤخذ بعين الاعتبار اذا درست بمعزل عن بعضها البعض . هذا على ما يبدو هو ما قام به فوندت . لقد خصص هذا قسماً من نشاطه من اجل سيكولوجيا تجريبية محققة في المختبر والتي ، كما رأينا في الفصل الاول ، تستهدف بصورة خاصة قوانين سيكولوجية تصلح ، كالقوانين الفيزيولوجية ، لاي ممثل كان للنوع الانساني . في حين ان عمله في « سيكولوجية الشعوب » تكشف عن منهج مغاير : انه تجميع تاريخي واسع النطاق ، ظهرت مجلداته العشر الاولى ما بين ١٩٠٠ و ١٩٢٠ .

كما لن يمكن التوصل ايضاً الى درس التفاعلات اذا لم نعتبر سوى اثر الزمرة الاجتماعية على الفرد . والموقف المتطرف بهذا المعنى هو ان يفسر الفرد تفسيراً كاملاً عن طريق الجماعة . فالمقولات التي تمكنا من التفكير بل والعواطف التي نشعر بها ضمن عائلتنا ، تأتينا من المجتمع ، في حين انه قد لا يكون هناك انتقال ممكن من « التمثلات الفردية » الى « التمثلات الجماعية » التي اعطت للاولى الحياة . تلك هي الاطروحة التي دافع عنها دور كيم سنة ١٨٩٨ . ثم قامت اراء اكثر تفارقاً ، لكنها اعلنت ايضاً اهمية كبرى لتأثير المجتمع الى درجة تنتفي معها تماماً الغاية من السيكولوجيا الاجتماعية ؛ هذه الآراء عبر عنها سنة ١٩٢٥ هليفاكس في كتاب « الاطر الاجتماعية للذاكرة » ، و ش . بلونديل سنة ١٩٢٧ في معرض بحث الادراك والذاكرة والحياة الوجدانية (كتاب « المدخل الى السيكولوجيا الجماعية ») . وهناك أعمال اخرى ، من وحي مختلف تماماً ويمكن ربطها بالأعمال السابقة من جهة كونها تنير الاثر المكوّن الذي تحدثه الجماعة الاجتماعية على الفرد والتي تعبر على انها شيء خارج عنه . ويصبح هذا الاثر بديهياً خاصة عندما يقيم علماء النفس وعلماء المجتمع اتصالاً مباشراً مع الشعوب البدائية التي نبه اليها فرازر (Frazer) (١٨٥٤ - ١٩٤١) في كتابه « الفصن

الذهبي ، (١٨٩٠) The Golden bought . فثقافة هذه الشعوب ، المختلفة تماماً عن ثقافتنا ، والمختلفة بين شعب وشعب ، ترتبط ارتباطاً جلياً تماماً ، باختلاف النفسية الفردية ، بحيث كان من الصعب انكار تأثيرها . وقامت بعثات تضم علماء نفس واثروبولوجيون [نياسيون ، علماء الانسان] في اواخر القرن الماضي (١٨٩٨ : بعثة كمبريدج الاثروبولوجية الى توريس ستريتس (Torres Straits) والى سارواك ؛ ١٩٠٠ : بعثة جيسوب Jeusup الى شمالي الباسفيك) . الا انه توجب انتظار العقد ١٩٢٥ - ١٩٣٥ ليقوم كتاب امير كيون امثال مالينوسكي (Malinowski) (ميلانيزيا) ، ور . بنديكت (Benedict) (الهنود الامير كيون) ، اوم . ميد (M. Mead) (ساموا ، غينيا الجديدة) فيدالوا الى اي حد كبير يكون فيه البدائي نتاج ثقافته : مثال ذلك ، ان مفهوماً يؤول الى التحليل النفسي كمفهوم « عقدة اوديب » ، لن يلغى له وجود في مجتمعات لا يكون فيها دور رئيس العائلة موجلاً بالاب .

والطريقة الثالثة لتجنب المشكلة الرئيسية في موضوع السيكولوجيا الاجتماعية تماثل الى حد ما الطريقة السابقة : ومؤداها تفسير الجماعة بالفرد تفسيراً كاملاً ، اي ان نرى في صفات الجماعة الاجتماعية النتائج المباشرة والمحتوية لما في الافراد من هذه او تلك من الميزات . ويمكن ان نجد بسهولة ، في تاريخ الافكار الاجتماعية ، كثيراً من النظريات التي تركز على صفة تنسب الى الانسان كفرد مثل « الميل الى الشر » او « الطيبة الاصلية » . ويظن تارد ، وهو قريب العهد منا (١٨٤٣ - ١٩٠٤) ، ان الحياة الاجتماعية تركز على الاختراع ، المحدث للتجدد والتقدم المتنوع وعلى التقليد الذي يؤمن الاستمرار والاستقرار في المجتمعات . لكن ، اذا كان مفهومه عن التقليد يؤدي به الى مجال السيكولوجيا الاجتماعية الخاص ، فان مفهومه عن التفاعلات يعطي للفرد فيها دوراً لا يقل أهمية عن مفهوم التقليد : « اذا استبعد الفردي فلن يبقى للاجتماعي شيء ابدأ ، ثم ... لاشيء في المجتمع ، ولا شيء اطلاقاً ، ليس بوجود - في حالة تجزؤ وتكرار مستمر - في الافراد

الاحياء ، او لم يوجد سابقاً الاموات الذين أنجبوا هؤلاء الاحياء». يرى ماكدوغال (١٨٧١ - ١٩٣٨) الاحداث الاجتماعية كمظاهر لغريزة تدفع بالانسان الى العيش في المجتمع . او لم يقل ارسطو من قبل ان « الانسان هو حيوان سياسي » ؟ نحن نعرف جميعاً كم هي الغرائز جامدة ، ونعرف ايضاً ، بالتالي ، ان مثل هذه النظرية لا يمكن ان تترك مكاناً للتأثيرات المتبادلة بين الافراد والمجتمع . ان تارد وماكدوغال هما بالاساس عالمان نظريان . وفي زمن اقرب الينا قام العالم النفساني الانكليزي ايزنك (ابتداء من سنة ١٩٤٤) بالدراسة الاحصائية (التحليل العاملي) للمعطيات التجريبية المجموعة عن طريق الاستمارات . وقد توصل الى ان الاتجاهات الاجتماعية تنتظم في « عاملين » الراديكالية - النزعة المحافظة ، ثم العنف - النزعة اللطفانية . اتنا نشير هنا الى ابحاثه لانه وجد هذين العاملين ذاتهما في بريطانيا العظمى ، وفي السويد ، وفي المانيا ، وفي فرنسا ، وفي الولايات المتحدة ، مما يوحي بفكرة استقلال ما للاتجاهات الاجتماعية بالنسبة الى التأثيرات التي تحدثها على الافراد المجتمعات الخاصة التي يعيشون فيها .

٢ - الاتجاه العام للمناهج . - ادت الجهود الفكرية حول علاقة الفرد بالمجتمع في اغلب الاحايين الى قيام انظمة فكرية عامة ، عامة جداً ، وغير مكرسة لان تقييم وتقرر وقائع دقيقة محددة بل كانت على الاكثر دعوة الى نموذج ما من اعادة التنظيم الاجتماعي . نجد بعضاً من هذا الروح في اقدم الابحاث التي قلنا انها كانت تشكل اطار السيكلوجيا الاجتماعية الحالية : فالاكثريتها منها لا تبدي عن اي اهتمام بالدقة في اقرار الوقائع ، وتتلقى بدون تمييز وتمحيص الطرق المختلفة . وبذلك فليس اسهل فيما عناها من تفسير مجموع هذه « الاحداث » بواسطة نظرية عامة واحدة ، كنظرية الغريزة التجمعية (grégaire) [القطيعية] لصاحبها ماكدوغال كما يتراءى ايضاً الميل الى اعطاء الاحكام بدلا من الوصف والتفسير ، على سبيل المثال ، من سلال مولف غ . ليبون (G. le Bon) ، حول « سيكلوجية الجماهير » (١٩١٥) : فالفرد بين الجماهير يتقهقر الى حالة بدائية

ويستعيد افتراضية العصابة . قاومت السيكولوجيا الاجتماعية بشدة ، هذه الروح ، وأخذت تبزغ هنا وبوضوح تام النزعة الى الاقلاع عن النظريات المفرقة في عموميتها ، هذه النزعة التي شاهدنا مثلها في فروع اخرى من علم النفس ، وقد اتضح ذلك ، على ما يبدو ، بجلاء تام بسبب ان الخطر - وهو خطر الخروج عن النطاق العلمي - هو هنا اكبر منه في أي مكان آخر . وتنزع جميع الاعمال المعاصرة ، على درجات مختلفة من الفلاح والتوفيق ، نحو مناهج الملاحظة او التجربة ، المناهج التي لا يمكن ان تتأثر بأراء الشخص الذي يستعملها والتي لا تحكم مسبقاً على النتائج التي يمكنها ان تؤدي اليها . ومن ثمت كان ان تناولت هذه الاعمال ، بحكم الضرورة ، عدداً أقل من القضايا في حين ان البناء التقني لعب فيها دوراً اكبر بكثير . كما جعلت الخاصتان هاتان انشاء التركيبات (syntèses) العامة اكثر فاكثر صعوبة ، حتى لأمكنك الحشية من التجزئة والتناثر في حقل السيكولوجيا الاجتماعية المعاصرة .

ويبدو ان السيكولوجيا الاجتماعية قاومت هذا الخطر ببحثها عن مفاهيم يمكن ان تستعمل في دراسة القضايا المختلفة ويمكن ان تقدم مصطلحات ومفاهيم مشتركة . وهكذا ، بحذرهما من النظريات العامة ، وجدت السيكولوجيا الاجتماعية مثل هذه المفاهيم على مستوى اكثر واعلى تقنية واصرح : هو مستوى « النماذج » .^(١)

يؤلف استعمال « النماذج » شكلاً من البرهان القياسي (Par analogie) سبق ان رأيناه في بعض الفصول السابقة . لقد لاحظنا ، مثلاً ، ان نظرية رياضية عن الاتصالات (الهاتفية او غيرها) قد امكن استعمالها في السيكولوجيا التجريبية . وهذا لا يعني بالطبع اننا شبهنا الانسان بكل سذاجة بمصدر للاشارات . لكن نموذج البرهان الذي مكّنتنا من وضع مشاكل الاتصالات بشكل رياضي بسدا مقبول التطبيق ، وبشكل مفيد ، على بعض المشاكل النفسانية ذات المحتوى المختلف تماماً . ويقال ، في مثل هذه الحالة ، ان العالم النفسي استعمل « نموذجاً » مأخوذاً عن الاتصالات . هذه الكلمة ، نموذج ، لا تتضمن اي حكم قيمي وتكتفي

١ - نموذج ، في هذا الفصل ، موضوعة لتقابل « موديل » أو طراز .

فقط بالإشارة الى نوع من المشابهة في الشكل .

على ذلك اذا كانت السيكولوجيا الاجتماعية ، كما رأينا ، ليست العلم الوحيد الذي يستعمل النماذج فانها ، على ما يبدو ، قد اسرقت في استعمال هذه النماذج التي تشكل حالياً ، بعد تمثيلها وتكييفها الى حد ما ، الهيكل الذي يعطي للسيكولوجيا الاجتماعية تماسكها ووحدتها . هناك في الواقع سببان لذلك : التعقيد والصفة التجريدية لقضية تتعلق بدراس العلاقات المتبادلة ؛ ثم هناك تأخر السيكولوجيا الاجتماعية نسبياً ، هذه السيكولوجيا التي يمكن ان تنتفع من اشكال الفكر المنجزة في مجالات اخرى ، ولا سيما في مجالات علم النفس الاخرى .

٣ - « النماذج » المستعملة في السيكولوجيا الاجتماعية . - اقدم هذه الاشكال الفكرية واسهلها تمثلاً هو مفهوم الاتجاه (attitude) . فاتخاذ اتجاه ما يعني الاستعداد للتصرف ضمن وجهة ما . هذا المفهوم استعمل اولاً في علم النفس بصدد الاتجاهات الجسدية ، ويطبق على حالة ما من التوتر في العضلات . لقد سلطت الاضواء على دور هذه الاتجاهات المحركة في مجال الادراك (لانج ، ١٨٨٨) ، وفي مجال الانتباه (مونستربرغ ، ١٨٨٩) ، وفي حقل الوعي (فيري - Fere ، ١٨٩٠) . وتبين فيما بعد ان نفس هذه الاتجاهات تشكل وسيلة لفهم الآخرين (بالدوين ، ١٨٩٥ ؛ جيدنكس ، ١٨٩٦ Giddings ، الخ ...) . ويعود الفضل في تعميم هذا المفهوم ونقله الى السيكولوجيا الاجتماعية الى توماس (W. I. Thomas) والى زنانيكي (F. znaniecki) الذين نشراسنة ١٩١٨ : The Polish Peasant in Europe and America ^(١) . في هذه الحال لم يعد الاتجاه استعداداً محركاً للعمل . انه حالة فكرية تدعو الفرد الى تكوين رأي ، والى التصرف بشكل ما ، ازاء غرض اجتماعي (مثل النقود ، والاجانب ، او نظرية ما ، الخ ...) . ولقد ادى توسيع المفهوم هذا الى صعوبات جمة من اجل تعريفه بشكل دقيق :

١ - الفلاج البولندي في أوروبا وأمريكا .

هكذا استعرض البورت ، سنة ١٩٣٥ ستة عشر تعريفاً مختلفاً كما استعرض نلسن ، سنة ١٩٣٩ ، ثلاثة وعشرين . بالرغم من الصعوبة هذه بدا نجاح هذا المفهوم ضخماً : فهو ذو مظهر مزدوج ، فردي وجماعي ، يتجاوب مع الطبيعة العمومية لقضايا السيكولوجيا الاجتماعية ؛ وبصورة عرضية يتجاوب هذا المفهوم ، عن هريش الاساليب [التنقيبات] التي سنتكلم عنها ، مع التعبير الرقمي ومع المعالجة الاحصائية ، التي تفرض نفسها بالضرورة هنا وفي المجالات الاخرى من السيكولوجيا . هذا ، بحيث يبدو توماس وزفانيكي على حق ، الى حد كبير ، عندما يعرفان السيكولوجيا الاجتماعية كلها عن طريق الدرس العلمي للاتجاهات .

ومن اهم مقتبسات علم النفس الاجتماعي الاخرى ، هو ما اقتبسه عن سيكولوجية الادراك وبصورة خاصة عن الابحاث المأخوذة عن المدرسة الشكلية (الجشطوطية) . فنحن نذكر ان فريدمان افتتح سنة ١٩١٢ اعمال هذه المدرسة مبيناً ان الحركة ، بالنسبة الى الشخص الذي يدركها ، ليست قابلة للتجزئة الى احساسات بدائية بل تؤلف كلا أو « شكلاً » . واذن لا يمكن تدبر مختلف عناصر الادراك كل منها على حدة : فهي تتفاعل فيما بينها الى درجة انه يكفي احداث تغيير في أحدها حتى يتغير تماماً ادراك المٌجمل . وقد بين الشكلليون [الجشطوطيون] دوماً تلكوء ان طريقة التفكير هذه تنطبق أيضاً على القضايا الاجتماعية (كوهلر ١٩٢٩ ؛ كوفكا ، ١٩٣٥) انما توجب انتظار السنوات التي تلت نهاية الحرب العالمية الثانية حتى صار متواتراً عرض قضايا السيكولوجيا الاجتماعية بهذه الصيغة . فقد تم الاعتراف ، غالباً ، عندئذ ، بان المواقف الاجتماعية يمكن تدرك ، هي أيضاً ، كـ « كل » ، مُبَدَّيْن [مبنيّ ، متراكب] ؛ وان قوانين ادراك الاشياء ، المقررة في مجال السيكولوجيا التجريبية ، من قبل الجشطوطيين ، تطبق على ادراك كل واحد منا لشخص وعمل الآخرين ؛ وان السيكولوجيا الاجتماعية يمكن ان يكون لها وقع عملي بالغ ، اذا جلا انها قادرة

على افهام كل واحد كيف يمكن ان يكون ادراك العالم الخارجي من قبل الغير :
اي من قبل مواطن هذا البلد او غيره ، او من قبل عضو هذا الحزب او ذاك ،
الخ ... وقد اهتمت طريقة عن القضايا على هذا النحو ، مثلاً ، المقال الشهير الذي
نشره كرش (D. krech) وكروتشفيلد (R. S. Crutchfield) سنة ١٩٤٨
تحت عنوان : « نظرية ومشاكل علم النفس الاجتماعي » . (١)

استغل العالم النفسي الجشتلطي ك . ليفين (١٨٩٠ - ١٩٤٧) ، وهو مهاجر
ايضاً الى الولايات المتحدة مثل كوهلر وكوفكا ، استقلالاً مختلفاً قليلاً ، الفكرة
القائلة بان المواقف الاجتماعية ، كل منها ، يشكل « كلاً » ، « مبنياً » . وقد
اصر هو خصوصاً على درس القوى التي من مفاعيلها الاخبار عن تكوّن ،
واستقرار ، وتحول هذه البنيات (structures) . وهكذا فتح نهجاً في
العمل جديداً : هو درس « دينامية الجماعات » . واستعمل على نطاق واسع
النماذج الرياضية . وهكذا عمل ادخال المفهوم الجشتلطي للادراك الى حقل
السيكولوجيا الاجتماعية مجموعة كاملة من المعادلات ، من القوانين . اما بقية
الاستعارات فلم تكن دائماً بمثل هذه الامة .

قد يمكن ان لا يكون مفهوم الدور ، الذي استعارته السيكولوجيا الاجتماعية
من الفن الدرامي ، قد جلب معه بُنية [بناء] متينة بمثل متانة المفهوم الجشتلطي
عن الادراك . « ففي الحياة الاجتماعية ، يتوجب على الفرد ان يكون قادراً على
ان يتخذ لنفسه ، بين قارة وأخرى ، جملة مواقف ذات معنى بالنسبة الى الآخرين :
فهو على ذلك « يلعب » دور ، الزوج ، دور رب العمل ، دور الخباز ، الخ ...
ثم انه مضطر لأن يكون قادراً ايضاً على فهم « الادوار » التي يرى الآخرين
يلعبونها . وقد استخرج مفهوم « الدور » ، أولاً ، ميد (G. H. Mead) خلال

المحاضرات التي قدمها في شيكاغو ، في السنوات الأخيرة من القرن الماضي .
ويُستعمل هذا المفهوم حالياً ، في معاني مختلفة الى حد ما كل من مورينو
(L, Moreno) ، وزيوكب (T. K. Newcomb) ، الخ .

هناك مفهوم آخر ، هو مفهوم التواصل ، لم يستعمل بعد تماماً في مجال
السيكولوجيا الاجتماعية . وقد ركز الانتباه ، منذ التجارب المهمة التي قام بها
مايو (Mayo) وروثلسبرغر (Roethlisberger) وغيرهما ، المحققة بين سنة ١٩٣٩
في محترقات هوترون التابعة لـ وسترن الكتريك كومباني (وسنتكلم عنها) ، على
أهمية نقل المعلومات نقلاً جيداً بين المجموعات الاجتماعية . وتبذل جهود لايجاد
مناهج تتيح معرفة الكيفية التي يتم فيها تداول هذه الاخبار او المعلومات ،
ويقال عندئذ اننا ندرس « الطرق وشبكات المواصلات » بين الجماعات . في حين
يبدو ، في اكثر الأحيان ، ان الامر لا يعدو ان يكون صورة لا تحمل معها اي
شكل من التفكير الخاص المعين . الا أنه يمكن للنظرية الرياضية عن المواصلات
التي سبق ذكرها (شانون (shannon) ، ١٩٤٨) ان تقدم هنا « نموذجاً »
رياضياً آمناً بناء (بافيلاس Bavelas ، ١٩٥٠) ؛ هيزي Heise وميلر
(Miller ، ١٩٥١) .

خلال الحرب العالمية الثانية ، نما استعمال النماذج الرياضية في السيكولوجيا
الاجتماعية نمواً واسعاً بفضل العلماء الذين كانوا يعملون ، في الجيش الاميركي ،
لمعالجة القضايا التي تطرحها : « الاخلاق » ، « الدعاية » ، الاتجاهات ، الخ ... ان
استعمال امثال هذه النماذج هو الذي افاح بصورة خاصة ، تقدم قياس الاتجاهات
تقدماً محسوساً وقد نشرت هذه الابحاث ، التي يصعب جداً تلخيصها ببضعة
اسطر ، من قبل ستوفير (S. A. stouffer) ول . غوتمان (L. Guttman)
وغيرهما ، سنة ١٩٥٠ ، في كتاب : « القياس والتنبؤ » ، Measurement and
Prediction الجزء الرابع من النشرة المهمة المخصصة لدراسات السيكولوجيا
الاجتماعية خلال الحرب العالمية الثانية والتي قام بها فريق من السيكولوجيين

الأميركيين) وفي سنة ١٩٥٤ ، في كتاب جماعي نشره لازارسفيلد P.F. Lazarsfield بعنوان : « التفكير الرياضي في العلوم الاجتماعية » .

وقد عملت هذه الانماط المختلفة من النماذج ، أحياناً ، على بعث أعمال تجريبية .
ومرات أخرى ، طبقت هذه الانماط على أبحاث سابقة لظهورها (كما استعمل
علم الوراثة المنديلي بعد الحين ، ودون ما سبق علم ، كأساس نظري لأبحاث
تتعلق بعلم النفس الفارقي من قبل ان تعرف هذه السيكلولوجيا) .
وسنستعرض الأهم من هذه الأعمال .

٢ - الأعمال التجريبية وتطبيقاتها

١ - دراسة الآراء والاتجاهات . - اذا كان مفهوم الاتجاه هو أحد المفاهيم
الاساسية جداً في علم النفس الاجتماعي المعاصر ، فان دراسة التعابير اللفظية
للمواقف والآراء قد سبقته اشواطاً . ان أهمية معرفة حالة الرأي العام ، بالنسبة
الى الحكام ، هي المنشأ او في اساس هذه الدراسة . كما اعطاها تطور الصحافة
الكبرى دفعة جديدة الى الامام . وقد اكتسب قيمة علمية بفضل الأعمال التي
قام بها الإحصائيون على اساس « العينات » والتي قام بها السيكلولوجيون حول
سلام الاتجاهات .

ان تتوسع في بحث ظهور ما يسمى بـ « الرأي العام » . انما نذكر ان
فيكو (١٦٦٨ - ١٧٤٤) امكنه ان يكتب : « يعطي الشعب للقوانين المعنى الذي
يعجبه ، ويتوجب على الاقوياء ، شاءوا أم أبوا ، ان يراعوا القوانين بالمعنى الذي
يفهمه بها الشعب » . ومنذ بداية القرن الثامن عشر ، كانت الحكومة الانكليزية
تستعلم عن الرأي العام بواسطة شبكة من المراسين كان المسؤول عنهم دانيال
ديفو بالذات ، مؤلف كتاب روبنسون كروزوي . اما نابليون فقد كلف بذات
المهمة الكونت دي لا فاليت . وفي الولايات المتحدة ، سنة ١٨٢٤ ، نظمت
صحيفتان هما : هاريسبورغ بانسلفانيا و راليغ ستار « بمناسبة الانتخابات

الرئاسية ، «انتخاباً وهمياً» . فقبل الانتخابات ببضعة ايام سئل القراء الذين امكن الاتصال بهم ، بأية وسيلة كانت ، املاء نشرة تصويت وهمية . وبعد فرز هذه الاصوات الوهمية ظن المنظّمون أنهم يستطيعون اعطاء تنبوء عن الانتخابات الحقيقي بل وربما أيضاً التأثير على نتائجه . وتكررت هذه الانتخابات الوهمية حتى سنة ١٩٣٦ ، حيث لم تعط احداها ، المنظّمة من قبل مؤسسة « ليتاراري دايجست » ، بمناسبة اعادة انتخاب روزفلت ، الا تنبؤات غير مضبوطة . في حين أعطت ثلاث عمليات سبر (sondages) منظمة تنظيمياً علمياً (من قبل كروسلي ، روبر ، غالوب) تنبؤات مضبوطة . وبالواقع كانت الانتخاب الوهمي يتوجه الى أي كان دون مراقبة ، يعطي غالباً تنبؤات خاطئة ، لأن الفئة التي تشترك فيه لا تمثل مجموعة الناخبين تمثيلاً صحيحاً . وتحسنت الطريقة بفضل التقدم الوافر الحاصل عن طريق الاحصاء ، وخصوصاً بفضل أعمال الاحصائي النرويجي أن . كياير (kiaer) ، في اواخر القرن الماضي . ولقد عُرِفَت في وقت مبكر كيف تشكل عيّنة من الاشخاص تركيبيهم العددي مناسب ومماثل لتركيب السكان العلم في المهنة ، المنطقة الجغرافية ، الخ ... وكان هؤلاء الأشخاص ، المختارون عشوائياً من بين جميع الأشخاص المستجمعين الشروط المطلوبة ، يُسألون من قبل جملة من المحققين المعدّين خصيصاً لهذه الغاية . وكانت هذه العمليات السبرية [السبرات] تجري في البداية على ايدي أجهزة خاصة تدرس ، من أجل اهداف تجارية ، سوق الاستهلاك (عادات ، تفضيلات ، رغبات المستهلكين) . هذه الشبكات المقامة خصيصاً لهذه الغاية هي التي استخدمت السبر في الانتخابات الرئاسية لسنة ١٩٣٦ . لقد عمل نجاح التجربة على تطويرها . وعقب سنة ١٩٣٦ ، استلحقت وزارة الزراعة في الولايات المتحدة بنفسها عالم اجتماع كلفته بتزويدها بالمعلومات عن رأي المزارعين . وصرعان ما تبنت هذا النهج اجهزة عامة أخرى استعانت أكثر فاكثراً ، سواء في الولايات المتحدة ام في بريطانيا على الاخص ، ولا سيما في فترة الحرب العالمية الثانية وعقبها ،

باجراءات السبر وخدماته . في مؤازرة ذلك تطورت دراسة الرأي العام ضمن المجال الجامعي اتساقاً مع تزايد الاهمية التي ارتداها مفهوم الاتجاه في مجال علم النفس الاجتماعي وقد تجلت هذه الموازاة ، في فرنسا ، في المهيات المزدوجة التي قام بها ج . ستوتزل (J: stoetzel) الذي أخذنا عنه عناصر الفقرة السابقة) ، الذي أسس سنة ١٩٣٨ المعهد الفرنسي للرأي العام والذي كلف سنة ١٩٥٥ تعليم علم النفس الاجتماعي في السربون . كما قامت مؤسسات أخرى افرنسية بعمليات سبر للرأي .

لم تكن السبرات هذه تتناول في الغالب الا عدداً محدوداً من الاسئلة ولا تستهدف الا التنبؤ بحادث ليس له الا عدد محدود من الحلول او المخارج الممكنة: انتخاب ما مثلاً . الا انه منذ سنة ١٩٢٥ تقريباً ، درس علماء النفس مناهج استجواب تستخدم عدداً اكبر من الاسئلة ونخصصة لتوضيح ، يكون بطريقة اجلى ، اتجاه الاشخاص ازاء موضوع اكثر تعقيداً: المشكلة العرقية في الولايات المتحدة مثلاً . وطبقت هذه الاساليب في عمليات السبر، خصوصاً في ايام الحرب. الا انها استخدمت في البداية من قبل مؤسسات ابحاث ، في السيكلولوجيا الاجتماعية ، على عدد محدود من الافراد ، اكثر تهية واستعداداً للخضوع لتجارب طويلة وفي الغالب على جماعات الطلاب . ويستحق تطور هذه المناهج، في ضوء ما نرمي اليه نحن من هدف ، ان يوصف بشيء من الاسهاب .

سبق أن أشرنا ، في الفصل الاول ، الى تجارب فكنر بقصد قياس الاحساس « ولربط هذا القياس بالقياس المادي للمثير . وقد اولدت هذه الأبحاث ، بعد تحريرها من الاطار الميتافيزيقي الذي اقترن بها عند فكنر ، سلسلة من الدراسات تشكل حقل النفسفيزياء الذي يهدف ، وفقاً لرأي ثورستون (١٩٢٦) ، الى درس « الترابط بين سلسلة من المثيرات وسيرورات التميز التي بواسطتها يمكن للجهاز الجسدي ان يفرق ويميز فيما بينهما » .

حوالي سنة ١٩٢٥ ، درس ثورستون ، هذا العالم النفسي الاميريكي الذي اتينا

على ذكره في الفصل الثالث بمناسبة التحليل العاملي ، المناهج النفسفيزيائية ووضع عدة مكتوبات عن هذا الموضوع . بين ان هذه المناهج - المخصصة لتقديم سلام للقياس تكون سيكولوجية ، ذاتية ، ومتوافقة مع المثيرات الفيزيائية كالأوزان او الأطوال - يمكن ان تقدم أيضاً سلام لـ « اتجاه » ما ازاء هذه المثيرات الاجتماعية التي هي على سبيل المثال : الاعراق ، الجنسيات (القوميات) والكنيسة ، وغيرها ... واذا تهيأت لنا سلسلة من الازان غير المتساوية ، فيمكن ان يطلب الى الافراد ان يوزوا هذه الأثقال ازدواحيًا (لتكوين جميع الأزواج الممكنة ضمن السلسلة) وان يصرحوا ، بصدد كل منها ، اي الثقلين يبدو الأثقل . تلك هي طريقة المقارنة على اساس الأزواج ، الطريقة التي تتيح تكوين السلم الذاتي ، والذي يُرى ، من الناحية النفسية ، متوافقاً مع سلسلة الازان .

درس تورستون هذا الاسلوب سنة ١٩٢٧ . وفي ذات السنة استعمله في مجال السيكلوجيا الاجتماعية لتحديد رأى ٢٦٦ طالباً من شيكاغو بصدد الخطورة النسبية لعدة جنح . لقد استبدلت اذن ازواج الاثقال بازواج الجرائم بنظر هذه المجموعة .

كما اتاحت مناهج أخرى بناء سلام اتجاه اقترحها تورستون ذاته (١٩٣٩ ، النخ .) ، ثم ليكرت R. LIKERT (١٩٢٢) ، وغوتمان (١٩٤١) ، النخ ...

٢ - ج . ل . مورينو والسوسيومتريا . - ولد ج . ل . مورينو MORENO في بوخارست سنة ١٨٩٢ . وكان طبيباً للأمراض النفسية والعقلية في فيينا . تعمق الالمان في الثقافة الفلسفية الموسوعية التي شاهدها عند مؤسس السيكلوجيا التجريبية . وعانى ، كما عانى البعض منهم ، من أزمة ميتافيزيقية ودينية نتج عنها جديدان مبتكران ، ومختلفان نوعاً ما في حقل السيكلوجيا الاجتماعية : السوسيوغرام ، وهو اسلوب تقني كمي يتيح وصف الشائع والمنافرات التي توجد بين أفراد جماعة ضيقة ، وذلك عن طريق المناهج الإحصائية

ثم السيكودراما والسوسيو دراما وهما منهجان في علم النفس العلاجي (السيكوتيرابيا) بواسطتها يكون فريق من الأشخاص ، يقودهم مدرب اللعبة المفروض ان يكون « عيادياً » مجرباً الاداة الاساسية في المعالجة .

في نظر مورينو ، الله هو ابداع عفوي كامل . والشخص الانساني لا يحقق ذاته ولايصبح الها ، الا بمقدار ما يصل الى هذه الدرجة الخلاقة . ويصبح من الضروري اذن معرفة العقبات التي تمنع العفوية الابداعية الإنسانية من التحرر: Das stegreiftheater (1923, who shall survive ?,1934).

من جملة هذه العقبات ، تبرز القوى التي تقربنا او تبعد بنا عن الأفراد الآخرين الذين نحن معهم على اتصال ؛ فالسوسيوغرام هو وسيلة تقنية تمكننا من وصف لعبة القوى هذه . فقد استبق ، في سنة ١٩٢٣ ، بما يسمى بـ « مخطط بياني للوضعية والتفاعل diagramme de position et d'interaction » ، واتخذ شكله النهائي سنة ١٩٣١) . بمعرض دراسة سوسيومترية حققت في سجن سنغ سنغ (سبق لـ مورينو ان هاجر الى الولايات المتحدة في سنة ١٩٢٥) . تقوم الطريقة هذه ، على طرح اسئلة ، على كل فرد من الجماعة ، هدفها تحديد انسجام وتنافر كل منهم : مع من تريد أن تحقق هذا العمل أو ذاك ؟ مع من تريد ان تسكن ؟ من تختار رئيساً ؟ من ترفض في فريقك ؟ الخ ... ثم استعمل مورينو ايضاً الأجوبة لكي يصور على مخطط بياني ، وبواسطة سلسلة من الإصلاحات البيانية ، شبكة العلائق المتبادلة في الجماعة .

اما المجموعة الأخرى من الأساليب التي يعود الفضل فيها الى مورينو فتهدف الى أبعد من ذلك ، الى افهام ذوي العلاقة وجعلهم يعون مظاهر الموقف الاجتماعي التي لها تأثير عليهم وان يتاح لهم بذلك التحرر منها لبلوغ البداهة الإبداعية الأساسية .

هذه المناهج (« تمثيل الدور » (role playing) ، السيكودراما والسوسيو دراما) قد طبقت في فيينا من قبل مورينو بين سنة ١٩٢١ و ١٩٢٥ .

وهكذا نرى ان مناهج مورينو تشكل تجارب تجري على جماعات محدودة وتحاول ان تُظهر للملا تلك القوى المؤثرة اما داخل هذه الجماعات واما عليها . ونجد مثل هذه المميزات في اعمال ك . ليفين [لوين] ومدرسته . لكن هذه الأعمال تسير في خط مختلف تماماً ومن أجل اهتمامات غير اهتمامات مورينو التولوجية . وهذا بحيث انه إذا وجدت بعض المفاهيم او بعض الأساليب التقنية عند مورينو وعند لوين في الوقت ذاته ، فان هذا الأخير ترك طابعه على تيسار من الأبحاث المستقلة تقرب من ما سمي في ما بعد بـ «ديناميكية الجماعات» .

٣ - ك . لوين وديناميكية الجماعات . - يعتبر ك . لوين ، وهو سيكولوجي شكلاي ، على أنه كلٌ مُبين ذلك المجموع المكوّن من الفرد ومحيطه . أن كل تغيير في أحد عناصر « الحقل » السيكولوجي يغيّره برمته بالمقابل ، انه لمن العبث العمل على تحويل أحد عناصره دون التأثير على الموقف كله . هذه التبعية المتبادلة تقتضي وجود قوى يُعطي تفاعلها فكرة عن استقرار او تغيير « الحقل » . ويمكن لهذه القوى أن تمثل برسوم بيانية ، وبرموز من شأنها الخضوع للمعادلات الرياضية ، ويشكل هذا الجهد المبذول من أجل ادخال اللغة الرياضية في حقل السيكولوجيا احدى ميزات أعمال لوين « مبادئ الطوبولوجيا النفسية » principles of Topological Psychology ١٩٣٦ ؛ وكتاب « التمثيل التصوري الذهني وقياس القوى السيكولوجية » (١) ١٩٣٨ .

تدعي مدرسة مورينو السبق الى فكرة تحقيق تجارب حقيقية على جماعات محدودة النطاق موضوعة في ظروف بحيث استطاع ، وفقاً للمشئة ، تغيير بعض مظاهر الموقف كله ، وذلك ما استخدمته في سنة ١٩٣٦ . الا أن فكرة هذه التجارب المستشهد بها غالباً هي التجربة التي حققها لوين مع مساعديه : ر . ليبيت Lippitt (الذي خلفه على رأس مركز الابحاث المتعلق بدينامية الجماعة ،

1 - The conceptual representation and the measurement of psychological forces .

المؤسس سنة ١٩٥٥) ور . ك . هوايت (R. K. WHITE) .

نشرت هذه التجربة سنة ١٩٣٩ ، وكان مؤداها درس السلوك العدواني لأربع مجموعات ، مؤلف كل منها من خمسة أطفال عمر الواحد منهم ١٠ سنوات ، كان معلومها يوجهونها ، أثناء نشاط ترفيهي (صنع قناعات ، ونماذج مصغرة ، الخ...) وفقاً لنظم وقواعد مختارة بحيث يوضع كل منها وعلى التوالي ضمن مناخات ثلاثة : ديكتاتوري ، وديمقراطي و « دعوم يعملون » [كل على مزاجه] . أجريت ملاحظات متعددة حول سلوك الجماعات ولا سيما حول نشأة الاتجاهات العدوانية . لقد اشتهر هذا البحث كثيراً حتى انه ساهم حقاً ، أكثر من أي بحث آخر ، في التعريف باسم لوين .

استخدم سيكولوجيون آخرون اختبارات مختارة تهدف الى غاية جد مختلفة . وتقوم هذه (مثلاً ، من أجل اختيار أشخاص مؤهلين للقيادة) على دراسة سلوك كل من المشتركين من جماعة ما بدون زعيم ومكلفة ببحث ومناقشة موضوع معين او بالقيام بمهمة ما . وظهرت هذه الاختبارات اول ما ظهرت في المانيا حوالي سنة ١٩٢٥ في الفحوصات العسكرية . وقد طبقت على عمليات اختيار الضباط في الجيوش الحليفة خلال الحرب العالمية الثانية .

لكن البحوث التجريبية على الجماعات المحدودة النطاق الموضوعية في ظروف مفتعلة [او اصطناعية] ، الى حد ما ، ليست الوحيدة التي قام بها لوين وتلاميذه . فالاجراء المسمى من قبلهم بـ « المختبر الاجتماعي » يركز على اعتماد التغيرات الملحوظة اثناء محاولة تحويل جارية وفقاً لخطة مدروسة بدقة ، من قبل فريق من الاشخاص يعيشون في وسط طائفة حقيقية من الناس ، اعتماداً يكون بمثابة وسيلة للمعرفة . كما لو كانت القضية تتعلق ، مثلاً بتعديل موقف (٤٠٠٠٠) مواطن من مدينة معينة تجاه اقلية عنصرية (السود واليهود) (١٩٤٩) .

ثم ان لوين درس القوى الاجتماعية أولاً باستعمال النتائج لغايات عملية . وانه لذو دلالة أن يُعنون انتاجه المنشور بعد وفاته ، والمعتبر كوصيته العلمية ،

بـ « حل الصراعات الاجتماعية » Resolving social conflict (١٩٤٨) .

٤ - التطبيقات العملية للسلوكولوجيا الاجتماعية « العلاقات العامة » في الصناعة . - يشترك لوين مع الكثيرين من علماء النفس الأميركيين بالاعتقاد بأن نتائج السلوكولوجيا الاجتماعية يمكن ان تستخدم لغايات عملية .

رأينا التطبيقات العملية لدراسة الآراء والاتجاهات . كما شكل النشر والدعاية حقليين آخرين تطبق فيهما السلوكولوجيا الاجتماعية . انما تشكل الفوائد العملية المتعلقة بـ « العلاقات الانسانية » ، وخصوصاً في دنيا العمل ، وبسببات الرأي العام أيضاً ، احدى اهم مجالات علم النفس الاجتماعي التطبيقي .

وكما هو الحال في الاستطلاعات السبرية فقد سبقت التقنية ، في هذا المجال ، المعرفة النزيهة المجردة . لقد ظهرت في الصناعة مشاكل لا يستطيع حلها لاعلم النفس التقني المهتم بحسن انتقاء كل فرد على حدة ، ولا المهندسون التنظيميون الذين يدوسون أفضل الأوضاع العملية والمادية للعمل . نشأت هذه المشاكل من جراء العلاقات المتبادلة بين العمال انفسهم أو بين العمال والاجهزة الادارية [الكادرات] . وكلها مشاكل تدخل في نطاق السلوكولوجيا الاجتماعية قبل ان تضع هذه بالذات يدها عليها . وقد عمل المناخ الذي اوجدته نظريات وأعمال فرويد والمحللين النفسانيين ، ومورينو وخاصة لوين ، على توجيه الحلول نحو التقنيات الراهنة ، وهي تقنيات « العلاقات العامة » التي ترعرعت ، خصوصاً ، في الولايات المتحدة الأمريكية .

ان هذا الترعرع مدين لسلسلة طويلة على الأعمال جرت داخل مجموعة صناعية ، مهمة جداً ، واقعة في جوار شيكاغو ، في معامل هوثورن (Hawthorne) ، وكان ذلك بمباركة علماء النفس الصناعيين من جامعة هارفرد (اي . مايو ، ف . ج . روتلسبرغر ، الخ ...) ورؤساء المعمل . كانت معامل هوثورن تستخدم ، حوالي سنة ١٩٢٧ ، عندما بدأت هذه الابحاث ، ٢٩ .٠٠٠ عامل في صناعة المعدات التلفونية . ولقد دام الاستقصاء هذا اثنتي عشرة سنة ، حتى سنة ١٩٣٩

وحوى عدة مراحل لَحَظَ تتابعها هذا تغيّراً واضحاً جداً في التوجيه .

ففي البداية ، تناول الدرس خمس عاملات شابات طيلة خمس سنوات في معمل تجريبي خاص . وكان الهدف تحديد الظروف المادية (انارة ، الخ ...) والتنظيم (الاستراحات ، الخ ...) التي من شأنها تأمين أفضل انتاجية . لوحظ ، في هذا المعمل ، تحسن عام في الانتاجية استمر حتى بعد العودة الى الشروط المادية الاولى . يميز هذا التحسن الى « المناخ » الذي شاع في العمل بين العاملات والوكيل . فقد نُحِلَ هذا على الاهتمام ، شخصياً ، بكل عاملة لمعرفة ردود افعالها تجاه التغيرات المدخلة على ظروف العمل . لذا لم يعد بالنسبة الى العاملات « الزعيم » بل صار الشخص الملاذ ، الذي يمكن به الشجون والمصاعب ، وبصورة أعم ، ذلك الشخص الذي يمكن الكلام معه . ولوحظ ان تقلبات الانتاجية الفردية مرتبطة بالمصاعب التي تلاقىها العاملات في حياتهن الخاصة .

حملت هذه الملاحظات الأولى المشرفين على التحقيق على المشروع ، منذ سنة ١٩٢٨ ، بسلسلة من المحادثات حول موضوع قيمة ونفع الكادرات في المعمل . ولكن حدث أثناء هذه المرحلة الثانية ما حدث خلال الأولى : أصبحت هذه المحادثات نافعة في حد ذاتها . فقد ساهم مجرد سؤال للعمال والاستماع اليهم على تحسين الجو العام . وفوق ذلك ، بمناسبة هذه المحادثات وهذه المشاركة الحميمة في حياة المصانع فقد تُوصلت الى الاقرار بأهمية التشكيل العفوي لمجموعات صغيرة من العمال ، وأهمية اعلام الموظفين الذي لولاه لاصطدمت اجراءات الإدارة وتدابيرها بعداء هو عداء مبدئي .

وبرزت الصفات العامة لتقنيات « العلاقات العامة » في هذا العمل الاول : تركّز الاهتمام على شخص العامل في المصنع وخارجه ، وأهمية الإتجاه العام للكادرات [الاجهزة الإدارية العليا] ، وضرورة تمكين العامل من التعبير عن آرائه بحرية أمام « مستشار » مستقل عن الجهاز الاداري التسلسلي في المصنع مع التأكد من كتمانها لما يقال له ، وهو سعي مبدول من أجل تحسين الاتصالات

ومن ثم الاعلام . ونتعرف ، في هذه الميزات ، على الكثير من الاتجاهات المتعلقة بالعمل والتي أشرفنا عليها اعلاه .

كان نمو هذه المناهج ضخماً في الولايات المتحدة . الا أنها وان لاقت ترحيباً في اوساط أرباب العمل ، فقد اختلف الحكم عليها خارج هذه الأوساط . فهي بالواقع ، وكما أشار البعض ، يمكن ان تشكل وسيلة لإخفاء اتجاه ومعنى المشاكل الاجتماعية العامة المطروحة لا على مستوى مشروع ، بل على أساس التنظيم الاجتماعي الذي يشكل هذا المشروع قسماً منه فقط . وهكذا يمكن لهذه الأساليب ان تعيق تطور هذا التنظيم الاجتماعي .

‘بحيث ، بشكل خاص ، هذه المناهج ودلالاتها في كتاب ج . فرويدمان المسمى : « المشاكل الانسانية في الآلية الصناعية » ^(١) (١٩٤٦ ، ١٩٥٤) .

٣ — السيكولوجيا التاريخية عند ميرسون

من اللائق أن نشير الى « السيكولوجيا التاريخية » التي أسسها حديثاً اي . ميرسون في فصل مستقل . اذ لاشيء مما ذكر بشأن السيكولوجيا الاجتماعية ، يطبق على هذا المنهج الجديد في درس الانسان . ومع ذلك فالسيكولوجيا التاريخية ، تشكل ، بمعنى ما من المعاني ، شكلاً آخر من أشكال السيكولوجيا الاجتماعية ، ولهذا نحن نذكرها هنا .

سبق لريبو في مدخله الشهير لكتابه « السيكولوجيا الانكليزية المعاصرة » (١٨٧٠) ان نظر في « علم عبقرية (ايتولوجيا) ^(٢) في الشعوب والاعراق الذي يستمد مواده من علوم اللغة ومن التاريخ » . كما قد اشرنا أيضاً في الفصل الرابع ، الى فرضيات سبنسر وجانيه المستندة الى التطور التاريخي لأجل تحليل الوظائف الذهنية للانسان في ظروفها الراهنة . لكن هذه الفرضيات لا تستند على أية واقعة دقيقة محددة ، ولا على أي أثر تاريخي للتطور الذي تستند اليه . وفي سنة ١٩٤٧ قال اي . ميرسون ^(٣) ، بمناسبة كتابته لمحة عن حياة ب . جانيه بعد موته ،

1 - Problèmes humains du machinisme industriel .

٢ - ار : علم الاخلاق الاجتماعية .

3 - I. MEYERSON

هذه الجملة : « ويمكن أن يكون من الواجب أن نفسير مجمل الرسالة التي تركها لنا بما يلي : إقامة سيكولوجية تكوينية تكون تاريخاً كاملاً لسلوك ووظائف الإنسان النفسانية » .

وفي السنة التالية ، سنة ١٩٤٨ ، ظهرت أطروحته الشهيرة عن « الوظائف النفسانية والإنجازات » ^(١) ، اقترح على العالم النفساني أن لايفرق بعدئذ في دراسة الأحداث والوظائف البسيطة جداً ، الدراسة التي تخضع لتطبيق مناهج العلوم الفيزيائية ، بل أن « يدرس الإنسان من خلال أمتن انجازاته وأشدها تميزاً له ، وذلك كله عبر اعتراف هذا الإنسان نفسه » .

فهذه الآثار الإنسانية : اللغات ، والخرافات ، والأديان ، والفن ، والعلوم هي كلها ذات تاريخ وهذا . التاريخ يمكن أن يتيح للسيكولوجي أن يتتبع تكوين الوظائف النفسانية عند الإنسان . ويعطي ميرسون مثلاً على المنهج المقترح بتقديمه دراسة عن بدايات مفهوم « الإنسان » ، من خلال مجموعة من الوقائع الاجتماعية ، والأخلاقية ، والدينية ، واللغوية . على هذا يمكن أن تنشأ ، كما كتب ميرسون ، سنة ١٩٥٥ ؛ « سيكولوجياتبقي درس وفهم الإنسان العياني في زمن ما وفي مكان ما داخل محيطه الحضاري ، سيكولوجيا تعرف الإنسان مختلف ومتعدد ، وإنه يتكوّن ويبني نفسه بأشكال مختلفة أيضاً » .

مثل هذه السيكولوجيا ، الطاحنة بسعة الاطلاع والمعرفة المقتضاة من الذين يريدون أن ينصبوا عليها ، توضح مجلاء ، ومن هنا بالذات ، الوظيفة التي ربما تقع على عاتق العالم النفسي الحديث : وهي تحقيق دمج تركيبي لأنواع التقدم في حقول المعرفة .

الخاتمة

كنا قد أشرنا في مدخل هذا الكتاب ، الى التفتت الحاصل في مجال علم النفس ، وقد أمكن خلال العرض أن نبرز واقعة هذا التفتت ، وربما ، بعضاً من أسبابها ، وهي ، قبل كل شيء : اتساع حقل العمل ، ثم تزايد عدد الزراعيين فيه . ولكن هل يمكن التأسف على الوحدة التي عرفها علم النفس عندما كان هدفه الوحيد ، تقريباً ، درس الاحساسات والانعكاسات والإدراكات في ليبزيغ على يد فوندت ؟

يبدو لنا هذا التطور من الوحدة الى التفتت موسوماً بطابعين مميزين هما : سقوط النظريات الكبرى العامة تدريجياً ، في مطاوي النسيان ، هذا على صعيد الأفكار ؛ اما على صعيد الوسائل التقنية فان ضروب التقدم المتعددة التي تحققت في كل ميدان ، تبدو وكأنها أعطت أشكالاً عديدة جداً ، لذلك المنهج التجريبي والعلمي الذي يفرضه الاحتياج اليه ، اليوم ، بشكل جديد حتى لم يعد وارداً اطلاقاً ، كما كان الأمر يجري في اواخر القرن الماضي ، الانتهاء اليه انتهاء صريحاً . أو يجب أن نأسف اليوم لكون علماء النفس لم يعودوا يستلهمون ، كما في السابق ، عند بحثهم عن الفرضيات والمناهج ، المبادئ العامة التي تكفي عموميتها لأن تجعل منها مبادئ مشتركة فيما بينهم ؟

في هذا الصدد ، يمكن لأي فرد ، ان يدلي برأيه .

واذا أجز لنا الافصح عن رأينا الخاص ، فسنعترف بموقفنا الارتياحي ازاء هذه النظريات التي تهدف الى تقديم أسس مشتركة لا لكل علم النفس فقط بل ولكل العالم أيضاً . فهذه العمومية البالغة المدى في صياغة النظريات تضعها في مأمن من كل تكذيب دقيق وترخي العنان لموهبة كل مؤول قد تعجبنا أحياناً هذه الموهبة الابداعية . ولكن ماهي منفعة مثل هذه الألاعيب الذهنية ؟

فالذين انغمسوا فيها ، منذ أيام فيكونر بالذات ، قد ساهموا أحياناً مساهمة مهمة ، في تحسين المناهج والمعارف الموضوعية ، في حقل علم النفس . انما تدل

واقعة امكانية بعث « وتفسير » بعض الانجازات المتواترة ، بواسطة النظريات العامة المتباينة والمختلفة تماماً ، دلالة واضحة ، على أن هذه الانجازات يمكن ان تفصل بالفعل عن هذه النظريات ، حتى ولو انها تشكل بالنسبة الى بعض المفكرين حافزاً ضرورياً ماساً ..

لمثل هذا السبب رفضنا نحن أيضاً أن نعتقد بأن علم النفس قد بقي له ما يكسبه ان أقام وحدته على منهج تجريبي مستند الى المبادئ المتهادية في عموميتها . صحيح أن هذه المبادئ للمنهج قد اجمع على الاقرار بها غالبية علماء النفس ، ولكنها عمومية الى حد أن علماء النفس باتوا يشتركون بشأنها مع سائر العاملين في حقول العلم .

وفعلا فان كل هذه المبادئ ، النظرية او المناهجية ، التي يبدو أنها تظهر ، بصورة جازمة ، ومنذ البداية ، وحدة علم النفس — ربما تشكل العائق الأكيد بوجه قيام أي تقدم حقيقي نحو هذه الوحدة . فغالبا ، اعاق الانخداع بالحلول الكلامية ، التعميق بالقضايا العلمية فحال دون حلها حلا صحيحاً ، وذلك عبر تاريخ العلوم كله .

من الصعب جداً على من لعب دور المؤرخ ان لا يخضع لإغراء القيام بدور المتنبي . ربما كان يجب محاولة البحث عن الطريق الى هذه الوحدة في طريق يكون غير رد الفعل على تنويع وتفرق المشكلات والمناهج . بل ربما يكون الامر ، على العكس من ذلك ، يمكن في وجوب التماهي ، جهد المستطاع ، في هذا التنويع والتشتيت . وهذا ، الى درجة تظهر عندها ، في كل ميدان من ميادين علم النفس ، المشكلات الأساسية واشكال الفكر الاكثر تلاؤماً واقتداراً على حلها . ولسوف تمكن عند ذلك ، ربما ، ملاحظة ضروب من الوحدة المتعددة بين المحتوى والشكل . وانه لفي هذا الجهد المبذول بغية هضم وتمثل الاختصاصات المتعددة قد تمكن الوسيلة الكأداء لفهم احسن لوحدة ولدور علم النفس ومن ثم لفهم أحسن للانسان .

فهرس

٥	مقدمة المترجمين
٧	مقدمة المؤلف
٩	المدخل
١٣	الفصل الاول - علم النفس التجريبي
١٤	١ - منشأ القضايا والمناهج
١٩	٢ - الرواد
٢٥	٣ - المؤثرات اللاحقة
٣٥	٤ - التطور الحديث
٤١	الفصل الثاني - علم النفس الحيواني
٤٢	١ - تطور الافكار
٥٠	٢ - تطور المناهج
٥٥	الفصل الثالث - علم النفس الفارقي
٥٩	١ - اصول دراسة الفروقات الفردية
٦٥	٢ - النظريات المتعلقة بالفروقات الفردية
٧٢	٣ - نمو التطبيقات العملية
٧٧	الفصل الرابع - علم النفس المرضي والمنهج العيادي
٧٨	١ - نظرية ريبو

٨٢	٢ - نظرية جانيه ودوما
٨٨	٣ - الايماء ونزعة التنويم
٩٧	٤ - التحليل النفسي
٩٧	٥ - المنهج العيادي وعلم النفس العيادي
١٠٥	الفصل الخامس - سيكولوجيا الطفل
١٠٦	١ - خصائص عامة
١٠٧	٢ - المناهج
	٣ - من وصف الاحداث الى النظريات
١١٨	التفسيرية
١٢٤	٤ - بعض النظريات المتشابهة في نمو الطفل
١٢٨	٥ - تطبيقات
١٣١	الفصل السادس - علم النفس الاجتماعي
١٣٢	١ - المبادئ العامة
١٤٢	٢ - الاعمال التجريبية وتطبيقاتها
١٥١	٣ - السيكلوجيا التاريخية عند ميرسون
١٥٣	الخاتمة

مكتبة الفكر الجامعي

نقد ادبي

- تاريخ الرواية الحديثة البريس
- الاتجاهات الادبية في القرن العشرين البريس
- ادباء من الشرق والغرب عيسى الناعوري
- المذاهب الادبية الكبرى فيليب فان تيفيم
- معجم الادب المعاصر بيار دو بواديفر
- الادب الفرنسي الجديد غايتان بيكون
- الرومنطيقية في الادب الفرنسي سولنيه
- تاريخ الادب الفرنسي في القرن العشرين بيار هنري سيمون
- اثر المدة في الادب العربي بهيج شعبان
- الادب العربي الحديث الدكتور علي شلق
- بحوث في الرواية الجديدة ميشال بوتور
- تاريخ الادب الروسي مارسيل اهرار
- دفاعا عن اللغة العربية الدكتور كمال الحاج
- القلق في الثقافة محمد سعيد الجنيدي
- اندريه جيد مارك بيغبيدير

منتورات عويدات

مطبوعات - لبيشات

مكتبة الفكر الجامعي

علوم تطبيقية وتقنية

- معايير الفكر العلمي جان فوراستيه
- الامومة والبيولوجيا جان رويستان
- السدود مارسيل ماري
- تاريخ الطيران ادمون بتي
- الانسان جان رويستان
- انابيب البترول والغاز الطبيعي ادمون بتي
- التلفزيون الملون روبير غيليان
- النسبية بول كوديرك
- الدماغ الالكتروني لوريه وارنيون
- الموجب الصناعي ليونيل ستوليرو
- تقنية السينما لو دوكا
- الآليات الزراعية الحديثة طوني بالو

موسوعة

تاريخ الحضارات العام

بإشراف مورييس كروزيه

- ١ - الشرق واليونان القديمة
- ٢ - روما وإمبراطوريتها
- ٣ - القرون الوسطى
- ٤ - القرنان السادس عشر والسابع عشر
- ٥ - القرن الثامن عشر
- ٦ - القرن التاسع عشر
- ٧ - العهد المعاصر

ثمن المجموعة كاملة ٣٥٠ ليرة لبنانية

منتورات عويدات

بيروت - لبنان

Maurice REUCHLIN

HISTOIREE DE LA PSYCHOLOGIE

Texte traduit en arabe

par

Ali MOUKALLED & Ali ZEYOUR

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth - Liban

مكتبة الفكر الجامعي

ق. ل.

علوم اجتماعية

- مدخل الى علم الاجتماع - أرمان كوفيليه ٥٠٠
- المجتمع الصناعي - ريمون آرون ٥٠٠
- صراع الطبقات - ريمون آرون ٥٠٠
- في الدكتاتورية - موريس دوفرليه ٤٠٠
- القنبلة الذرية ومصير الانسان - كارل ياسبرس ١٠٠
- الضمان الاجتماعي - أندريه جيتنغ ٢٠٠
- الجماعات الضاغطة - جان مينو ٣٠٠
- سيكولوجيا الشعوب - اميل ميروغليو ١٧٥
- الثقافة الشعبية في فرنسا - شاربنتر و كاي ٤٠٠
- أمل القرن العشرين الكبير - جان فوراستيه ٥٠٠

منشورات عويدات
بيروت - لبنان

Bibliotheca Alexandrina



0546889

التمر ٥٠٠ ل. أو ما يعادلها